

بعض القضايا الأيديولوجيّة للبورجوازيّة الصغيرة

صلاح المختار







بعض القضايا الايديولوجية
للبورجوازية الصغيرة

صلاح المختار

بعض القضايا الأيديولوجية للبورجوازية الصغيرة

دار الطليعة للطباعة والنشر
بيروت

بيروت - ص.ب ١١١٨١٣

الطبعة الاولى
ايار (مايو) ١٩٧٥

مقدمة

بصعودها الى قمة السلطة السياسية ، في عدد من الاقطار العربية ، اثارت البورجوازية الصغيرة العربية سلسلة لامتناهية من الدلالات والقضايا ، تعتبر ، بحق ، من اخطر ما يواجه الثورة العالمية والقوى الاشتراكية على صعيد الايديولوجيا والتنظير السياسي . **فاولا** ، لا تخضع البورجوازية الصغيرة العربية للكثير من مقاييس تحديد الـ «بتي بورجوازيه» الغربية ، وهذا يعني انها تخضع لمقاييس تحديد جديدة في جزء رئيسي منها . **وثانيا** ، انها ذات تكوين اجتماعي واقتصادي مختلف كليا في اقطار العالم الثالث ، خصوصا الوطن العربي ، عن تكوين البورجوازيات الصغيرة في اوربا واميركا الشمالية ، وهذا يعني ان دورها السياسي والاقتصادي والاجتماعي يختلف تماما . **وثالثا** ، انها تتصدى لقضايا **عملية ونظرية** جديدة تماما ، هي حصيلة عصر السيبرانية وما فوق القومية (في الغرب) الممتزج مع عصر التخلف والامبريالية والنضال القومي (في العالم الثالث) . وان هذا **الامتزاج** يشكل مناخا خطيرا لتنظيرات ومحاولات هامة

متناقضة وغنية لمواصلة رسم خارطة التطور الايديولوجي للحركة الاشتراكية في العالم .

ومن المفارقات البارزة في تطورنا السياسي والنظري ان القوى والعناصر التي **تصوغ تفسيراتها الخاصة** للظواهر العملية المتحركة هي ذاتها التي **تخطط** لعمليات التحرك والتغيير ، بطرق **عشوائية** اولا ، ثم تنتقل اجزاء منها ، شيئا فشيئا الى مواقع ثابتة وقوية . لذلك نجد ان تفسيراتها الاولى للظواهر تنطوي على شيء من التبرير اللاحق لسياسات سابقة ، اضافة لتجاوزها للمنطق القديم ! فنجد انفسنا ازاء معطيات تفسيرية لدور البورجوازية الصغيرة يمكن تصنيفها الى صنفين :

الاول : المعطيات الاشتراكية العلمية **التقليدية** التي لا زالت غير قادرة على اغناء التراث الكلاسيكي للاشتراكية العلمية بصدد البورجوازية الصغيرة ، بسبب تمحورها حول تفسير طبيعة ودور البورجوازية الصغيرة الاوربية ـ الامريكية الشمالية . وتطبيق هذه المعطيات النظرية على بورجوازية صغيرة مختلفة بصورة واضحة . والناتج البارز لذلك هو حصول **الطلاق** الطبيعي بين **النظرية والعمل** .

الثاني : المعطيات الاشتراكية العلمية **الحديثة** التي درست جيدا ما قدمته تجربة الغرب الثورية من دلالات ومفاهيم ، لكنها لم تحصر نفسها ضمن جدران معطيات نظرية جاهزة ومحتازة (من احتياز) اكثر من مرة ! بل انها ، تحت ضغط الضرورات العملية وبروز احتمال سقوط البورجوازية الصغيرة الثورية ، اخذت العناصر الاكثر تقدما تحلل الوقائع العامة وتخرج باستنتاجات وآراء جديدة تفسر وضع البورجوازية الصغيرة الشرقية الخاص ، مضيفة بذلك للاشتراكية العلمية ابعادا نظرية جديدة تقطع الطريق على قوى الردة والوسطية التي تحاول التشكيك بقدرة الاشتراكية العلمية على فهم وتفسير ظواهر عصرنا

الجديدة .

ومن الواضح ان الاشتراكيين العلميين العرب غير المقيدين بأي اعتبار نظري «مقدس» ، والذين يقومون بالدور الاساسي في التعريف بالبورجوازية الصغيرة الشرقية وميزاتها ودورها ، هم اكثر احساسا بصعوبات هذا العمل الناجمة عن حقيقة ان هذه الطبقة لا زالت في دور نشوء ، او تطور ، او انتقال ، فيؤدي ذلك الى استحالة اعطاء فهم وتفسير نهائيين ، اذا ارادوا مواكبة العلم والواقع .

ان هذه الصعوبة هي ذاتها التي تجعل مسالة **التفرغ الاكاديمي** الصرف للتعرف والتعريف بالبورجوازية الصغيرة الشرقية من الامور المستحيلة ، وهي ذاتها التي تدفع ، **دفعا** ، بالكوادر والعناصر الاكثر تطورا في حركة الثورة العربية للقيام بمهمة التعريف والتعرف ! والعنصر الحاسم في اهلية هذه العناصر هو انغماسها التام في صلب عملية «بروسيس» الثورة والتغيير والعمل السري ومعاناة جميع **امراض** ايديولوجيا البورجوازية الصغيرة **ونقاوتها** في نفس الوقت ! وعلى امتداد التاريخ لم يقدم التفسير الاكثر صحة ودقة ، الا من قبل العناصر التي تمارس دورا فعليا في بروسيس الثورة والتغيير الثوري .

وبما ان بروسيس الثورة حركة مستمرة ومتطورة ، فان التنظير هو الآخر متطور يغتني بما تنجزه الثورة وبما تؤكده او تنفيه عبر **مسيرة العمل** . اذن : اولئك الذين ينتظرون **نظرية** جاهزة عن البورجوازية الصغيرة الشرقية ، تتجاوز بروسيس التطور الفعلي للاوضاع يقعون في نفس اوهام الاشتراكيين العلميين التقليديين الذين لا زالوا يقسرون الاوضاع على ارتداء زي اوربي ــ اميركي شمالي اصبح مجرد تراث متحفي عظيم !

ومن الامور الملفتة للنظر حقا هو ان الكثير من المناضلين ، هذا اذا تركنا الهامشيين ، قد وقعوا في خطأ فادح : النظر الى البورجوازية الصغيرة باحتقار ودمغها بالسقوط والرجعية المطلقين!

بل ان جميع الامراض ومظاهر الفشل قد اخذت تنسب لهـــذه الطبقة في محاولة لاعطاء تفسير بسيط ! فاختلط الابيـــض والاسود ، واصبح لزاما علينا ان نظهر الوجه المشرق للبورجوازية الصغيرة ، الذي هو التوام الآخر لوجهها القبيح !

واذا كان **التنظير الثوري** هو النتاج الطبيعي **للعمل الثوري** ، فان تغطية الظواهر العملية بمفاهيم مطابقة لها ، عملية تستغرق مراحل عديدة وتفرز بعيدا كل محاولة قسرية مفتعلة لتقديم اثواب جاهزة .

ومن اهم ما يلاحظه المناضل ـ المنظر ان ما يبحث عنه من دلالات نظرية في الواقع المتحرك ، يمتد متشعبا في مختلـــف مظاهر وجوانب حياة البورجوازيـــة الصغيرة ومتجاوزا حدود الايديولوجيا والسياسة الخالصتين . فدراسة حيــاة فيلسوف بورجوازي صغير ، سواء تمت بطريقة منهجية او عفوية ، تقود الى اعطاء استنتاجات ومفاهيم محددة في اطار الفلسفة ، وقد تمتد الى المجتمع والسياسة ! كما ان تناول تقليد اجتماعي خالـــص بالبحث يرجعنا الى جـــذور ايديولوجية وتاريخية متشعبـــة ومتداخلة ! وهكذا نحس بمحيط هائل يحيط بنا ويجعلنا نمسك براس الخيط بدل الضياع في لفافات الخيوط !

وكلما اكملنا سحب خيط ، تمكنا من الالتفات الى خيط آخر بلون آخر ! ورغم تغير الوان الخيوط المتشابكة ، فان ثمة عنصر جوهري مشترك تلتف حوله جميع هذه الخيوط واللفافات الملونة المختلفة الحجوم . بتعبير آخر : ان البحث في مختلف جوانب حياة البورجوازية الصغيرة يصب في مجرى واحد : الكشف عن خصائصها النوعية وقواعد حياتها وتاريخها ومستقبلها .

من هنا فان البحوث الاربعة المقدمة هنا ، تنتمي الى جهـد **عملي** كرسته للبحث عن خصائص ومكونات ومستقبل البورجوازية الصغيرة العربية ، حتى وان كتبت في اوقات متباعدة ، واتخذت نماذج **غير سياسية احيانا** ! القاسم المشترك لهذه البحوث ، والتي

تجعلها فصولا مترابطة ، هو انها تتناول جوانب محددة من هــذا المحيط الهائل : محيط البورجوازية الصغيرة .

واذا اردت الدقة ، فان هذه البحوث غير منتهية ! بمعنى ان تطور الثورة العربية وصعودها يفرض علينا اتمام هذه البحــوث بتقديم اضافات مستمرة ومتلاحقة تسد الثغرات وتكمل الصورة العامة على مدى التاريخ . وبالتالي فان نشاطنا ، في هذا النطاق، سوف يستمر لمتابعة ما يستجد والاسهام في تفسيره وتنظيره .

٨ – ١٠ – ١٩٧٣

الفصل الأول

قضايا العلاقة بين النضال القومي والصراع الطبقي

مفاهيم اولية

ما هي القومية :

القومية ظاهرة اجتماعية ـ تاريخية وليست معطى بيولوجي، طبيعي . فلكي نستطيع تمييز شعب عن آخر ينبغي ان يتمتع كل شعب بسمات خاصة به . ان الشعوب تتكون عبر تطور يستغرق آلاف السنين ، يتم خلاله تراكم الصفات (العرضية) واستقرارها الى الدرجة التي تتحول فيها الى صفات (ملازمة) . والصفات

العرضية تظهر نتيجة مؤثرات بيئية واجتماعية متنوعة جدا ، في وسط متشابه ، او متقارب ، فتؤدي الى تمايزات (ثانوية) ضمن المجموعات البشرية المتقاربة ، تأخذ ، في ظــل شروط معينة ، بالاستقرار والتبلور والتلازم مع مجموعة بشرية دون غيرها ، الى حد صيرورتها سمة خاصة وميزة ذاتية .

ولئن كانت هذه السمات والميزات الذاتية التي تظهر فــي المجتمعات البشرية مجرد تمايزات ثانوية ، في مراحــل النشوء الاولى ، فانها ، شيئا فشيئا ، تكتسب طابعا عميقا عندما تترعرع في مناخ اقتصادي ـ نفسي ـ لغوي جديد ناشيء .

ان التمايزات الراهنة بين الشعوب تمايــزات تاريخية ، تكوينية ، وليست طبيعية ، بيولوجية . بمعنى انها حدثت نتيجة توافر شروط ملموسة واقعية ، يمكن اجمالها في :

ا ـ الاختلافات الاقتصادية .
ب ـ الاختلافات الاجتماعية ـ النفسية .
جـ ـ الاختلافات الجغرافية .
د ـ الاختلافات اللغوية .

ثمة ميل ، سابق وراهن ، لدى الفئات التي تتشكل منهــا المجموعات البشرية الى (التميز) ، واكتساب او اظهار صفــات تنفرد بها دون بقية الفئات . فداخل القبيلة الواحدة يميل الافراد الى التجمع في عشائر ، وفي العشيرة الى افخاذ ، وفي الافخاذ الى عوائل الخ . حتى نصل الى الفرد الواحد ، الذي يطمح في امتيازات تكون (معنوية) في فجر الحياة البشرية ، و(مادية) بعد انقسام المجتمعات الى طبقات .

لكن هذا (الميل) يبقى في مرحلة تاريخيــة ، وفي شروط معينة ، مجرد ميل (خاص) ضمن (كل) موحد ، لا ينفصل عنه ،

بل يرفض كل فكرة للانفصال ! انه مجرد تنوع (تلقائي) ، معنوي، في الميزات الذاتية للفئات .

ثم تبدأ هذه التمايزات ، في اللهجات وبعض العادات الثانوية ودرجة التأثر بالبيئة الجغرافية والموارد الاقتصادية الخ، باكتساب وجود (مستقل) ومتميز بصورة واضحة ، عندما تدخل الفئات المكونة للجماعة الواحدة في صراع داخلـــي على الموارد ومصادر الثروة والتوزيعات الجغرافية ، فيكون ذلك ايذانا بتفكك التجمع وظهور علاقات فئوية واجتماعية جديدة ملازمة للصراع التاريخي والفرقة الجغرافية ، اي انتقال (فئة) الى مكان آخر بعيدا عـــن الجماعة التي تنتمي اليها .

وهذا بالضبط (مصدر) التمايزات (القومية) الاول . اذ ان هذه الفرقة الجغرافية ، والعداءات الفئوية ، الناجمة عن صراعات اقتصادية ـ اجتماعية ـ بقائية متداخلة ، ومتفاعلة ، تتحول الى مناخ لتكوّن جديد ، يختلف عن المناخ السابق الذي انتج تلـــك الجماعة عبر مئات او الوف السنين .

ينشأ عن ذلك وضع جديد تماما ، طابعه العام خضوع كل فئة منشقة عن الجماعة الى مؤثرات خاصة بها ، تقرر اتجـــاه تكوينها التاريخي واللغوي والاجتماعي ، واحيانا ، السلالي ، في العصور المنقرضة ، بل اننا نصل ، في مرحلة معينة ، الى حـــد فقدان الارتباط المباشر ، اللغوي والاجتماعـــي والسلالي ، بين الابناء السابقين للمجموعة الواحدة . وهذا ما نلاحظه ، مثلا ، في اختلاق الفروع المتعددة للاصل السامي الذي تفرعت عنه الاقوام التالية : الاشوريون ، البابليون ، الكنعانيون ، العبريون ، العرب، الاراميون .

ان هذه التمايزات ، التي كانت ثانوية ، ثم تحولت الـــــى تمايزات (موضوعية) ، رئيسية تتجلى في لغة خاصة وتكويـــن نفسي ـ اجتماعي متميز الخ ، تستمر لفترة طويلة ، تاريخيا ،

في التأرجح ما بين التعصب لها ، ويتجسد ذلك في الحركات (العرقية) المتطرفة القديمة والحديثة ، والتي كانت ، في احيان معينة ، ستارا لصراع اجتماعي عميق ، وبين الخضوع الى تيار جديد وتقلص فاعلية هذه التمايزات التاريخية ، كما هي الحال مع ظهور المسيحية والاسلام ، اللذين ضما شعوبا مختلفة كثيرة، هذا التأرجح يستمر الى ان تتوفر الظروف الموضوعية الملائمة لتبلور كامل لهذه التمايزات .

الظروف التي أدت الى ظهور القومية

تنقسم هذه الظروف الى مجموعتين ، مترابطتين ، تاريخيا وداخليا :

أ ــ **ظهور القومية في الغرب** : فالظروف التي دفعت الى ظهور القومية في الغرب ، بصفتها التعبير الناضج عن تمايزات الشعوب عن بعضها ، كانت ظروف ظهور الراسمالية . ان القومية في الغرب ، ما كان لها ان تظهر ، **كحركة** ، لولا السوق الراسمالي الواسع الذي ادى الى قيام البورجوازية بتوحيد شعبها ، في اطاره الجغرافي ، لمنافسة بورجوازيات الشعوب الاخرى ، وتصدير سلعها ، او الاستيلاء على المستعمرات . لقد كان الاقطاع عائقا امام ظهور (الحركة) القومية نتيجة ميله الى (الانتاج الطبيعي) (١) والعزلة والركود . كانت هناك (شعوب) ، لكنها كانت في عهد الاقطاع ، وما قبله ، موزعة الولاء بين الامراء والاقطاعات

---

١ ــ الانتاج الطبيعي : هو احد ميزات النظام الاقطاعي الرئيسية ، ويفترض ان الانتاج لا يستهدف المبادلة ، انما سد الحاجة الداخلية للاقطاعية .

والسادة ، لذلك لم يتسنى لكل شعب اقامة الكيان الواحد الذي يشده الولاء التام الى الامـــة . فجاءت البورجوازية بالنظـــام الراسمالي لتحطم (التشتت) الاقطاعي ، وتقيم على انقاضــــه (السوق القومي) الذي تباع وتشترى فيه السلع الراسمالية .

ان الانتاج الراسمالي ليس انتاجا (طبيعيا) ، بل هو انتاج (مبادلة) ، يستهدف (الربح) ، اولا واخيرا ، لذلك فان انتاجـــه يفوق حاجة السوق (المحلي) ، فيتجه، اولا ، الى السوق القومي، وسط شعبه ، منافسا الاجزاء الاخرى من بورجوازيـــة بلده ؛ فتظهر (الحركة) القومية كستار للمطمح البورجوازي للاستيلاء على (مجموع) الشعب وتصريف السلع . ولا تكتفي البورجوازية، بعد سيطرتها على الامة ، بهذا الاتساع في سيطرتها ، بل تبدأ ، ثانيا ، بمحاولة ضم الاجزاء المتأرجحة الولاء ، او السيطرة على الامم الفقيرة او المتخلفة وانشاء المستعمرات ! لقد توسع الانتاج الراسمالي واصبحت عجلته تدور بطريقة قانونية (محتومة) لتلتهم الامم الاخرى وتجعل منها (سوقا) للسلع الراسمالية ، و(مصدرا) للمواد الخام .

لقد كانت ثمة (ظاهرة قومية) ، هي السمات الخاصة بكل مجموعة بشرية ، لكنها لم تتحول الى (حركة) موضوعية، مستقرة، الا في مرحلة سيطرة البورجوازية ، ومرافقيها الحتميين (السوق الواسع) و(الانتاج الواسع) .

ب ـ ظهور القومية في الشرق :

اما في الشرق فان ظروف نشاة القومية، الظاهرة والحركة، مختلفة جدا : فلئن ظهرت الحركة القومية في الغرب كاستجابة لحاجات النظام الراسمالي الى سوق واسع فاضطرت الـــى

الاستفادة من (الظاهرة) القومية ، فان القومية في الشرق قد ظهرت بفعل :

١ ـ الحاجة الطبيعية (لسلطة مركزية) قوية تقوم بتوفير المياه ووضع نظام الري الضروري في مناخ جاف (٢) ، بخلاف الغرب الذي كان يعتمد على الامطار الغزيرة في الري فلم يكن بحاجة لسلطة مركزية ، ذات مهام (ادارية ضخمة) (٣) ، كما هي الحال في الشرق ، لتنظيم الري وإدامته وضمان وصول المياه الى المزارع . ويمكن ملاحظة ان السلطة المركزية القوية ، او الاستبدادية ، (تساعد) على بلورة صفات مشتركة بين الخاضعين لها ، اذا استمرت لفترة طويلة . ولعل مثال (الشعب العربي) يؤكد ذلك : (انطلق) العرب من الجزيرة العربية ، موطنهم الاصلي ، لينشروا (لغتهم) ونمط حياتهم في قارتين : آسيا وافريقيا !

٢ ـ لم يكن العرب شعبا (جديدا) ، كالشعب الاميركي ، او قبائل تطورت الى شعوب ، كالشعوب الاوربية التي كانت لمئات السنين قبائل متخلفة، بل انه (متميز) بصفاتهاللغوية والاجتماعية والاقتصادية منذ اكثر من الف عام ! فعندما فتح العرب اسبانيا واجزاء من ايطاليا ، كانت اوربا تسكنها قبائل متصارعة بدائية فوجئت (بشعب) متقدم في روابطه وعلاقاته وسايكولوجيته ! صحيح ان العرب لم تكن لهم آنذاك (حركة) قومية موضوعية ، اي

---

٢ ـ انظر : الياس مرقص : الماركسية والشرق ، دار الطليعة ، وكذلك : ماركس وانجلز : في الاستعمار ، ترجمة د. فؤاد ايوب ، دار دمشق .

٣ ـ الدولة الشرقية ، وان كانت اداة استبداد كلاسيكي ، الا انها لم تكن (دائما) اداة بيد طبقة معينة ، بل كانت ، في احيان معينة وتحت تأثير ظروف البيئة ، اداة خدمة عامة ، كانت السلطة المركزية القوية ميزة شرقية تلازم النظم الاستغلالية والنظم الاخلاقية ايضا !

مكتملة الصفات ومستقلة التاثيرات ، لكن المؤكد ان (الظاهـــرة) القومية ، قد وصلت آنذاك ، اي قبل حوالي الالف عام ، الى حد فرز (حركة) قومية . لكن ذلك لم يتحقق نظرا لعدم توفر شروط سنتناولها فيما بعد .

ان (القدم) القومي العربي يضفي على (الحركة) القوميـــة العربية استقلالا موضوعيا عن الظاهرة الراسمالية ، فـي جانب منها ، اضافة لتأثرها بالظاهرة الراسمالية .

٣ ـ لم يكن ثمة نظام راسمالي يقرر انبثاق (الكيان القومي) المتبلور ، كما حصل في الغرب ، نظرا لان النظام الانتاجي العربي (هجين) ، مختلط «اقطاع ، بقايا العبودية ، قطاع راسمالـــي تجاري» لا يساعد على قيام سوق وانتاج واسعين . اما (العامل الحاسم) في بروز الحركة القومية العربية ، قديما وحديثا ، فقد كان وجود عناصر وشروط ضرورية لظهور القوميـــة «الارض ، الاقتصاد ، التكوين النفسي ، اللغة» منذ مئات السنين ، اضافة لقيام تجارب وحدوية عربية سابقة افتقدها الغرب : في عهـــد الخلفاء الراشدين تجمعت قبائل عربية في اطار عروبي ـ ديني، ثم جاءت الدعوة (الاموية) لتطرح مسالة العروبة بصورة تكاد ان تكون طاغية على الدين . ورغم هيمنة النزعة الدينية في عهـــد العباسيين الا ان العروبة بقيت هي السائدة ، سلطويا ، حتـــى اواخر عهدهم ، عندما سيطرت العصبيات التركيـــة احيانا ، والفارسية احيانا اخرى .

هذه التجارب الوحدوية ، القومية ، السابقة ، والتي تتميز بها شعوب الشرق الرئيسية ، اضافة للمفاخر الحضاريـــة والعسكرية والثقافية ، وتوفر اغلب شروط ظهور القومية ، كانت العوامل الحاسمة في النهوض القومي العربي المتبلور في اواخر القرن التاسع عشر ، وهي بنفس الوقت عناصر تميزه النوعي ، والتي تجعل ظهور الحركة القومية العربية سابق في مبرراتـــه

ودوافعه لظهور السوق الراسمالي .

٤ ــ ساهم قيام الدول القومية في الغرب في توضيح الكثير من المفاهيم القومية العربية ، عبر تقديم الحل القومي لمشاكل التجزئة ، اضافة لتقديمه «اساسا» اكثر رسوخا لظهور حركة قومية متبلورة ومستقرة ، على صعيد عالمي . وهذا الاساس هو تطور النظام الراسمالي في الغرب وصيرورته الى ظاهرة عالمية .

٥ ــ تتميز الحركة القومية في الشرق بوجود الظاهرة الاستعمارية ، اولا ، ثم الامبريالية ثانيا ، وما يتركه ذلك من تأثيرات (خارجية) ، ارادية ، مخططة ، على تبلور هذه الحركة وتقرير اتجاهات نموها . لقد نشات الظاهرة القومية في الشرق في احضان الاضطهاد الاستعماري الخارجي ، بينما لم تشهد الظاهرة القومية في الغرب هذا المناخ الاستعماري الصرف ، او الامبريالي ، وتقرر اتجاهها وفقا لتطور (تلقائي) ، غالبا ، فرضته اعتبارات تطور النظام الراسمالي .

وما يترتب على هذه الحقيقة التاريخية ، بالدرجة الاولى ، هو ان الحركة القومية في الغرب اكتسبت طابعا (بورجوازيا) اولا، ثم استعماريا ــ امبرياليا استغلاليا وعدوانيا ثانيا ، ترافق ذلك اتجاهات عنصرية متطرفة احيانا . وهذا هو الاساس الذي استندت عليه الحركة العمالية ، في الغرب ، في نقد القومية والفكر القومي ورفضهما ، وهو بالطبع رفض ونقد مقبولين وعلميين .

وعلى النقيض من ذلك فان القومية في الشرق ، نتيجة الاضطهاد الاستعماري والامبريالي اللذين تعرضت ، ولا زالت تتعرض ، لهما قد حددا سياساتها كسياسات (تحررية) اولا ، وذات مضمون اجتماعي متناقض ومزدوج ثانيا (دعوة قومية عربية بورجوازية اقطاعية تقابلها دعوة قومية عربية عمالية ــ فلاحية ــ بورجوازية صغيرة) وفرضا عليها طريق الاشتراكية اذا ارادت ان

تكون حركة نهوض حقيقي ثالثا .

(الظاهرة) القومية و(الحركة) القومية

بالاستناد الى الملاحظات والتحليلات السابقة ينبغي التمييز بين شيئين :

أ ـ **الظاهرة القومية** : التي تمثل تكوينا تاريخيا خاصا استقر عبر مئات السنين ، واحيانا عبر آلاف السنين، وقد اعطى هذا التكوين ثماره : خلق شعب متميز بلغته وتقاليده واقتصاده وارضه . ان الشعب العربي كان موجودا بميزاته (الجوهرية) الراهنة قبل اكثر من الف عام ، بخلاف شعوب الغرب الحديثة التكوين ، لكن وجود هذا الشعب القومي كان غير متبلور الى الحد الذي يسمح لنا باطلاق مصطلح القومية الحديث على كيانه . حتى القرن التاسع عشر كانت العروبة ظاهرة ذات طابع متذبذب ، فهي تارة نزوعا عروبيا واضحا ، بينما تنحو في احيان اخرى منحى دينيا خالصا . بل كان الاندماج ، احيانا ، يصل ذروته بين الطابعين الديني والعروبي .

ولكن في القرن التاسع عشر ، الذي نقل الينا خلاله مفهوم القومية الحديث والذي يؤكد على الميزات التاريخية ويكرسها كظاهرة موضوعية فاعلة وحاسمة ومستقرة ، في هذا القرن تبلورت الظاهرة القومية ، اي انتهى تذبذبها بين الدين والقومية، في الشرق ، بعد فترة قاربت احيانا اكثر من الف عام مرت خلالها شعوب امتلكت اغلب مقومات القومية الحديثة في عصور مبكرة ولم تتوفر فيها الظروف الضرورية لتبلور هذه المقومات ، كالعرب والفرس والصينيين ، ومن الشعوب الاوربية الاغريق .

ب ـ **الحركة القومية** : الظاهرة القومية، كما اشرنا ، ظاهرة

وجودية تاريخية . اي انها خصائص ذاتية لشعب ما تميزه عن غيره . ولكن الظاهرة القومية كيما تكتسب طابعا (موضوعيا) ، مستقرا ، ينبغي ان تتجسد في (حركة) قومية ، في نضال من اجل التحرر القومي ، او الوحدة ، او كليهما ، والا فان الظاهرة القومية تبقى مجرد مميزات (ثانوية) تاريخية لم تصل الى مرتبة التمايز الموضوعي المتبلور .

لقد جاء عصر الراسمالية ليكون الاطار الموضوعي الذي احتوى الظاهرة القومية وحوّلها الى انشط حركة شهدها الغرب، ومن بعده الشرق في نهاية القرن التاسع عشر والعشرين .

ان هذا التمييز بين الظاهرة القومية وبين الحركة القومية هو الذي يتيح لنا وحده ازالة قسم كبير من الالتباسات الخطيرة التي تحدث في اوساط عديدة، واهمها التباسان : **الاول** الالتباس الذي لا يرى الا (الظاهرة) القومية ، مجسدة في المجد والحضارة والتاريخ ، والنتيجة الطبيعية اهمال (الطريقة) التي تولدت بها (الحركة) القومية ، وفصل تبلور الحركة عن قيام النظام الراسمالي . اي نفي تأثير العوامل الاقتصادية على الظاهرة القومية .

الالتباس الثاني : الذي لا يرى الا (الحركة) القومية التي ظهرت حديثا في الغرب والشرق ، كنتيجة لظهور الراسمالية ، مهملا ، نتيجة نظرة جزئية ، التطور الواقعي (المتنوع) لشعوب العالم ، اي ان هذا الاتجاه يقلل من اهمية الظاهرة القومية . والنتيجة الطبيعية لذلك هي (تعميم) تجربة الغرب الواقعية ، على الشرق المختلف والمنطوي على الظاهرة القومية منذ اكثر من الف عام . وبذلك يقع هذا التيار في اسر التفسير الاقتصادي البحت اولا ، والمنهج التجزيئي ثانيا ، وهذان الانحرافان مضادان للماركسية اللينينية ، بخلاف ما يعتقد بعض السذج .

لقد تميز التيار الاول (القومية هي الظاهرة القومية فحسب)

بانه حوّل القومية الى معطى بيولوجي ، عرقي احيانا ، وجعل من المستحيل تفسير الظاهرة القومية بصورة واقعية ، بعد ان أرجعها الى (الذات) و(الحدس) و(التأمل) .

اما التيار الثاني فلقد الحق (كل) الظاهرة القومية ، بالحركة القومية الاوربية التي كانت نتاج السوق الراسمالي ، وبالتالي ، لم يعد للحركة القومية الا الطابع البورجوازي ! فحصل الطلاق (المفتعل) بين الحركة القومية ، في الشرق ، والحركة الاشتراكية! وكان هذا احد الاسس الجوهرية في تشرذم الحركة الوطنية العربية .

ولو حاولنا العودة الى التاريخ العربي لنكتشف العلاقة بين الظاهرة القومية والحركة القومية لامكننا ملاحظة ان الشرق ، والعرب بالخصوص ، كان في القرون الوسطى يعيش عصره الذهبي ، حضاريا وعلميا واجتماعيا ، في نفس هذه الحقبة كان الغرب عبارة عن (قبائل) متقاتلة ، متخلفة الثقافة والحياة الاجتماعية ، تعاني من عصور الظلام. وكانت هذه القبائل لا تعرف غير عالمها الضيق . لكن وجود الشعب العربي وقيادته للمسيرة الحضارية العالمية ، آنذاك ، لم يكن يعني وجود (الحركة) القومية، بل انه يعني فقط وجود (الظاهرة) القومية .

الحركة القومية تعني (الوعي) الكامل و(المستقر) للتمايزات الموضوعية بين الشعوب ، و(النضال) المتعمد من اجل كيان موحد ومستقل لكل شعب من هذه الشعوب . وهذا (الوعي الكامل) لم يظهر في العالم كله الا مع ظهور الراسمالية في الغرب ، ومع احتلال الشرق من قبل الغرب بعد نمو النظام الراسمالي في الغرب . لقد حملت الينا (الوعي) القومي الروح الاستعمارية الغربية التي استولت على الخليج والهند ، ثم طردت العثمانيين وحلت محلهم ، فكان ذلك بداية لبلورة ما كان (جنينا) ، او ظاهرة غير مكتملة ، واوصلت ما بين (بدايات) نشوء حركة قومية انكفات

اكثر من مرة بتحولها الى حركات دينية ، او طائفية ، أو عرقية ، وسبب انكفائها عدم كفاية الشروط الذاتيـــة (الاعتزاز بالنسب القومي والمجد والحضارة ووحدة الانتماء اللغوي) لبروز الحركـة القومية ، التي تحتاج لظروف موضوعية «وجود علاقات انتــاج واسعة وتجميعية تنهي التبعثر الاقطاعي» نقـــول : أوصلت بين (بدايات) نشوء حركة قومية انكفات وبين اليقظة الجديدة التــي لاحت في القرن التاسع عشر .

فكان النهوض القومي العربي خاضع لقوانين (خاصة به) :

١ ـ فهو امتداد (متقدم) نوعيا ، لمحاولات فاشلة سابقـــة لاقامة كيان قومي (متبلور) و(دائم) ، حدثت في زمن الدولـــــة الاموية مثلا . وعلى النقيض من ذلك لم يحصل في الغرب اي ميل سابق للراسمالية لاقامة كيانات (قومية) خاصة . والامبراطورية الرومانية لم تكن بأي حال من الاحوال دولة قومية ، او حتى شبه قومية .

٢ ـ والنهوض القومي العربي نشأ في أحضان انظمة مختلطة، هجينة : الاقطاع ، شبه الراسمالية ، التجاريـــة ، العبودية . بينما لم تنشأ الحركة القومية في الغرب الا على انقاض الاقطاع وفي أحضان الراسمالية . لذلك ورثت الحركة القومية العربية الاجزاء الاساسية من الابنية الفوقية لهذه الانظمة المختلطة ، بينما تميزت الحركة القومية في الغرب بأنها ذات ثقافات بورجوازيـة شبه خالصة !

هذه الاختلافات (الجوهرية) بين نشوء الظاهرة القوميـــــة والحركة القومية في الغرب والشرق ، تنعكس بصـــورة مباشرة احيانا ، وغير مباشرة في احيان اخرى ، على طبيعة التناقضات الداخلية في الوطن العربي ، وتحدد العلاقة بين هذه التناقضات، وترسم الطريق للممارسات التكتيكية اليومية ، اضافة الى انها تفرز مفاهيم وسطية ، عن القومية ، والصراع الطبقي .

لقد اصبحت هذه الخصوصية مصدرا رئيسيا من مصادر ازمة الحركة الثورية العربية ، بل انها قررت مستقبل الوحدة الداخلية لجميع الاحزاب الزائلة والقائمة . فأصبح من الضروري ازالة الالتباسات الرئيسية المتعلقة بالمسألة القومية ، ومناقشة الممارسات والمفاهيم السائدة حاليا ، ثم تقديم الفهم الاكثر واقعية وعلمية لعلاقة المسالة القومية بالصراع الطبقي ، وتحليل أستراتيجية الثورة وتاكتيكاتها السياسية .

طبيعة تناقضات الامة العربية وخصوصيتها

الثورة (قومية) ام ديمقراطية ؟

عندما انطلقت الطبقة البورجوازية في الغرب حاملة شعارات التغيير الثوري ، بعد القرن السادس عشر ، كانت مهمتها المركزية تتلخص في انتزاع قيادة الدولة ـ الامارة من الاقلية الاقطاعية ـ الارستقراطية المستبدة ، وإشراك فئات الطبقة البورجوازية في الادارة كخطوة اولى نحو استحواذها التام على السلطة .

لذلك كانت نشاطاتها الثورية تدور حول توسيع الاقتراع وعدم حصر حق ممارسته في الطبقات الحاكمة ، وإلغاء الشروط المالية للترشيح والانتخاب ، واعلان المساواة (القانونية) بين جميع المواطنين ، وتوسيع صلاحيات البرلمانات بتقليص صلاحيات الامراء والملوك الخ . بتعبير آخر : كانت البورجوازية تطمح في توفير مناخ حر لممارسة نشاطاتها الاقتصادية كخطوة اولى نحو الاستيلاء على آلة الدولة كليا، على اعتبار ان من يسيطر اقتصاديا لا بد وان يكون له حجم سياسي موازٍ ومطابق لحجمه الاقتصادي . فكان من الطبيعي ان تختار الارستقراطية ـ

الاقطاعية الحاكمة موقف رفض المساواة والديمقراطية ، لان هذه المساواة القانونية والديمقراطية ، مع تنامـــي الدور الاقتصادي الفعلي للقطاع الراسمالي ضمن النظام الاقطاعي ، كفيلان بإزاحتها عن السلطة السياسية .

هذه المهام والظروف الخاصة هي التي دمغت الصراع بالطابع الديمقراطي شبه الخالص ، فزخر تأريخ الغرب بالنضال من اجل الديمقراطية، الذي تزعمته الطبقة البورجوازية الجديدة ، القوية، فجاء مصطلح «الثورة الديمقراطية» ليعبر ، بدقة وصواب ، عن طابع ومهام المرحلة التاريخية . وبما ان النظام الراسمالي قد هيأ الاطار الضروري والشرط اللازم لبروز حركات قومية ، فـــان «الثورة القومية» في الغرب كانت جزء لا يتجزأ من الثـــــورة الديمقراطية ، وفي بعض الاقطار مرافق لها .

كان التناقض الرئيسي بين الطبقة البورجوازية ، مدعومة من قبل العمال والفلاحين ، وبين الطبقة الارستقراطية مدعومـة من قبل الاقطاع وكبار رجال الدين . ولم يكن ثمة تناقض يطغى على هذا التناقض . اما التناقضات الاخرى فكانت موجودة ، لكنها كانت ثانوية ، او مجمدة . فمعسكر الثورة الديمقراطيـــة (الذي يضم البورجوازية ، العمال ، الفلاحون الخ) لم يكن موحدا ومنسجما الا بالقدر الذي يتيح له انجاز مهام الثورة ، وما يتعدى ذلك ، اي البرامج الطبقية الخاصـــة والافكار والتكوينـــات الاجتماعية ، كان يشكل مصدرا لتناقضات عديدة ، لكنهـــا تناقضات غير حاسمة ، لان تفجيرها ، كتناقضات عدائية لا بد من حسمها ، لا يتم الا بعد اختمارها ، وهذا ما لا يجب وقوعه الا بعد ازاحة الاقطاع والارستقراطية .

التناقض الرئيسي ، اذن ، كان واحدا ، ولم يكن ممكنا ان تجري الصراعات السياسية والطبقية ، في ظل الظروف المذكورة، الا نتيجة لفاعلية واحد من التناقضات وقدرته على الحســـم والتقرير ، فتلحق به سائر التناقضات الاخرى .

ان ظروف الغرب (النموذجية) التالية :

١ ـ انقسام طبقي حاد ومتبلور خلفيته طبقات مكتملة النضوج والاستقلال .

٢ ـ غياب الظاهرة (الاستعمارية) التي تستفز الشعوب الاوربية الكبرى . واقتصار النضال القومي ، غالبا ، على قضية وحدة الشعب (الالمان ، الفرنسيون ، الايطاليون) او تحرره من سيطرة دولة اخرى : فتوحات نابليون ، تطلعات الشوفينية الالمانية . تجربة نابليون أدت بالنتيجة الى ضرب من الفتوحات (الامبراطورية) ، فساهمت في بلورة الوعي القومي في الكثير من اقطار اوربا .

هذه الظروف هي التي اتاحت لوحدها بروز تناقض رئيسي واحد خالص وواضح ، وهي التي مكنت من رؤية سلسلة متتابعة ، منطقية ، من الصراعات المنظمة ، والمراحل التاريخية المتعاقبة . فاصبحت مهمة الحركة الديمقراطية سهلة تماما .

لكن حدوث الثورة الديمقراطية (الخالصة) في الغرب ، وبصورة نموذجية ، هو ، بالضبط ، واحد من العوامل الجوهرية التي منعت قيام ثورة ديمقراطية (خالصة) في الشرق ، وفتح الطرق المتعددة لدخول تناقضات عديدة يصعب حصرها في تناقض رئيسي واحد ضمن الامة الواحدة ، وفق تحديدات الغرب للتناقض الرئيسي .

في الوطن العربي ، واغلب امم واقطار الشرق ، لا نجد تناقضات (نموذجية) على النمط الغربي ، اي متبلورة وحاسمة ، بل نجد تجليات جديدة تماما لتناقضات خاصة تماما . اننا لا نستطيع القول بأن الثورة العربية «ثورة ديمقراطية» خالصة ، اي ان هدفها هو توسيع حق الاقتراع واعلان المساواة القانونية الخ، كما لا يمكننا القول بأنها ثورة اشتراكية تهدف الى تدشين مرحلة المجتمع اللاطبقي ، كما اننا ، ثالثا ، لا نستطيع القول بأن ثورتنا

(قومية) فقط ، هدفها التحرير والحرية والوحدة ، واخيرا فاننا غير قادرين على القول بأن ثورتنا (حضارية) ، او تكنولوجية نلحق عبرها بالعالم المتقدم .

ان الثورة العربية تواجه (مجموع) هذه المهام ، او بعض بداياتها الضرورية ، وعليها النهوض بها ، بعد تحليل واكتشاف مصادر تناقضات اوضاعنا الطبقية والاجتماعية والتاريخية . هل ثورتنا (قومية) ؟ أم (اشتراكية) ؟ ام (ديمقراطية) ؟ أم (حضارية)؟ بتعبير آخر : من بين هذه التناقضات ، التي كل منها حاسم ورئيسي ، اي منها الاكثر حسما وفاعلية ؟ ان الاجابة على هذه الاسئلة هي (الخلاصة) الجوهرية لكل ما في شرقنا من خصوصية وتميز .

لنتذكر مميزات الوضع الشرقي ، العربي :

١ ــ جنينية الطبقات الاجتماعية وعدم خضوعها لنفس مخطط تطور الطبقات الاجتماعية في الغرب، وذيلية البورجوازيات الشرقية للامبريالية .

٢ ــ تعدد اشكال الاضطهاد القومي ، فالى جانب وجود الاستعمار وبروز استغلاله ، جزء الوطن العربي ، او اقيمت (دول عربية) قانونية منفصلة عن بعضها بحدود دولية ، وبتراكمات عصور التجزئة . ولم تكتف الامبريالية بذلك بل عمدت الى اقامة دولة امبريالية عسكرية متطورة جدا ، لتكون شرطيا يقمع تطلعات العرب للتحرر والوحدة والاشتراكية ، تلك الدولة هي اسرائيل. وهذه الدولة ذات التكوين السكاني الغريب تجربة فريدة في تاريخ نضالات الشعوب التحررية .

الميزات العربية المذكورة علمت ، بالتجربة ، الطلائع الحزبية اليسارية ان نهوضا اقتصاديا وحضاريا حقيقيين ومستقرين ، مرهونين بتحقق الوحدة العربية والتحرر . عبر اكتشاف هذه الرابطة امكن اكتشاف الرابطة (الداخلية) المحتومة بين وجود

الظاهرة الاستعمارية والامبريالية ـ والمهمةالرئيسية عند وجودها قومية او وطنية ـ وبين الانقسام الطبقي الداخلي ـ والمهمة الرئيسية عند وقوعه طبقية .

لقد كانت الامبريالية (الجسر الموضوعي) الذي ربط بين النضال القومي والصراع الطبقي . فلولا الامبريالية والكولونيالية (الاستعمار) ، لما استمرت التجزئة العربية والاحتلال الاجنبي ، وبالتالي لما بقي ثمة مبرر للنضال القومي . ولولا الراسمالية الاحتكارية (الامبريالية) لما تشكلت الطبقات الجديدة ، او تغير طابع الطبقات التجارية العربية القديمة جدا لتصبح وكيلا (وطنيا) للغرب ، او ذيلا له ، وبالتالي عجز البورجوازية العربية عن قيادة النضال القومي ، كما حصل في الغرب .

ان ظهور النظام الراسمالي القديم والامبريالية ، كانا شرطين لازمين وحاسمين في بروز التناقضين التاليين عندنا :

التناقض الاول : الانقسام الطبقي في الداخل الـذي كان امتدادا (نوعيا) لصراع طبقي قديم متداخل ، غير مستقر ، وتلقائي ، فجاءت الامبريالية لتنقله الى حالة جديدة تتميز بالاستقرار (النسبي) ، وتحديد مهامه التاريخية الجديدة «حماية مصالح الامبريالية»، وتدفعه ، قسرا ، صوب التركز والاستقطاب الاجتماعي الجديد المستند ليس على تقلبات بعضها عشوائي ، كما كان يحصل عبر الالف سنة الاخيرة من حياتنا ، بل على ارضية اقتصادية ـ ايديولوجية متماسكة يحيطها اطار عالمي ضامن يمدها بكل عناصر الاستمرار والقوة .

وهذا التناقض الطبقي (رئيسي) و(حاسم) لانه يسحق يوميا الملايين الى حد انه اصبح تناقضا (عدائيا) ، (مركزيا) ، لا يمكن تاجيله .

التناقض الثاني : التناقض القومي: فثمة (تجزئة) و(احتلال) عسكري وسكاني ، غرضهما نهب ثرواتنا والتمركز في مواقعنا

الاستراتيجية ، وإبادة (الجنس) العربي بقدر ما يعرقل المهمة الامبريالية المذكورة . ان التجزئة والاحتلال هما الشرطين الحاسمين لبقاء الاستغلال الامبريالي ، اي بقاء الوطن العربي سوقا للسلع المصنعة للغرب ومصدرا للمواد الخام لصناعاته . وعلى هذا الاساس فان اي حسم للصراع الطبقي لصالح الشغيلة في قطر واحد لن يكون نهاية المطاف في الثورة ، ولا حلا بديلا جذريا لمجموع القضايا المطروحة ، بل مجرد (خطوة) حاسمة في طريق طويل معقد وملغوم .

ان عالمنا اليوم هو عالم الوحدات الكبيرة والاكتفاء الذاتي القاري ، ولقد تخطت اوربا مصاعب بداية اللقاء لاجل تنسيق اوربي ، فتناسى الالماني والفرنسي العداء التقليدي بينهما ، مثلا، لاجل (مصالح اوربا المشتركة) ، واخذا يقيمان ، مع بقية الاوربيين ، علاقات (فوق قومية) او رغم ان الدافع الرئيسي لهذا المنحى الاوربي هو (تنافس) بورجوازيات المنظومة الامبريالية، فان ظاهرة التكتل القاري قد اصبحت سمة عصرنا الراهن .

والاكتفاء الذاتي لا يتحقق الا في اطار دولة متنوعة الموارد والمصادر . لذلك فان الاشتراكية العلمية (القطرية) ضد اتجاه التاريخ ، وهي تكون مشروعة ومبررة بقدر ما يعتبر بناءها مجرد خطوة اولى نحو اشتراكية علمية على نطاق قومي .

ما الذي يترتب على هذه الخصائص الشرقية ؟ لم يكن تاكيدنا السابق على خصائص العرب والشرق مجرد امر عابر ، بل هو محاولة لاعطاء صورة متكاملة عن المناخ الذي فرز الامور التالية :

الثورة ليست ديمقراطية

ان التحرير والوحدة اللذان يعتبران جزءا لا يتجزا من مهام

الثورة الديمقراطية أوربيا ، لم يبق لهما اي ارتباط (ذيلي) بقضايا الديمقراطية التقليدية ، في الشرق ، الا بالقدر الذي تلوح فيه (المسالة الديمقراطية) جزء لا يتجزأ من ثورة اعم واشمل واكثر فاعلية . فنحن لا نناضل من اجل توسيع حق الاقتراع ، ولا لاجل المساواة القانونية ، رغم ان هذه القضايا متضمنة في صلب مهام الثورة الاوسع، كجزء ، كشرط لاحق. اي ان المسألة الديمقراطية لا يمكن حسمها ، شرقيا ، الا عند حسم قضية الثورة الاوسع .

لذلك فان استعمال مصطلح (الثورة الديمقراطية) عند تحديد طابع المرحلة التاريخية الراهنة ، استعمال غير دقيق ، وينطوي على التباس لاحق حتما . ويفضل استعمال مصطلح (الثورة القومية) ، في حالات معينة ، لانه ينطوي على انجاز مهام ديمقراطية محددة ، لكنها (جزء) ثانوي من مهام الثورة الاساسية: طرد الامبريالية، تحقيق الوحدة، البدء بإزالة الاساس الاقتصادي للطبقات . الديمقراطية ، في الحالة هذه ، تأتي (كشرط) لممارسة دور اكثر فاعلية من قبل الطبقات الثورية ، وليس هدفا منفصلا يحتوي بقية الاهداف. اضافة لذلك فان الديمقراطية (الآسيوية)، الشرقية ، ليست ديمقراطية ليبرالية برلمانية ، لان ذلك يقود الى طريق مسدود وملغوم بصورة خطرة ، بل (ديمقراطية شعبية ــ مركزية) تعيد (تربية) الجماهير ، بنفس الوقت الذي تتيح فيه لها ممارسة حقوقها .

الثورة ليست قومية (خالصة)

ان الالتباس لا يزول بمجرد تفضيل مصطلح (الثورةالقومية)، اذ تبقى المسألة غامضة وعلى قدر كبير من التضليل ، ما دام المصطلح ، بالنسبة للبعض ، اكثر من طابع مرحلة ومجرد تحديد

مطلق ، اي النظر الى المسألة القومية كظاهرة منفصلة عن الصراع الطبقي ، او اعتبارها (الاصل) الذي يلحق به الفرع .

حقا ان ثورتنا الراهنة (قومية) ، لكنها ليست قومية (خالصة) ، ليست معزولة باسوار صينية عن الثورة الاشتراكية. كما اشرنا ، (الحركة) القومية في الشرق نتاج ظهور الراسمالية في الغرب ، هذا هو الوجه الاول للارتباط بين الثورة القومية والثورة الاشتراكية . كذلك فان الطبقات الشرقية الحالية اما تكونت مع الظاهرتين الاستعمارية والامبريالية ، او انها امتداد متطور للطبقة التجارية العربية القديمة المشهورة في بطون التاريخ القديم . وهذا الامتداد اصبح وكيلا محليا للاحتكارات الراسمالية الغربية ، والنتيجة الحتمية هي انفصال الطبقات البورجوازية الشرقية عن اممها وانحيازها التام ، غير الطوعي ، للغرب الامبريالي . وهذا هو الوجه الثاني للارتباط بين النضالين الطبقي والقومي .

عندما نناضل (قوميا) فاننا ، بالضرورة وضمنا ، نناضل (طبقيا) . وهذا قانون موضوعي في عصرنا . طرد الاستعمار يعني طرد القوة التي فرضت علينا التجزئة الحديثة والاستغلال الاجنبي ، اضافة الى انه يعني تصفية الاستثمار والاستغلال المحليين اللذين يمارسهما وكيل محلي للامبريالية ، هو البورجوازيات الشرقية .

اننا لا نستطيع ابدا تحرير وطننا من الامبريالية عندما نكتفي بطردها عسكريا ، او اقتصاديا في حالة اكثر تقدما ، ثم نسلم الامور للبورجوازية المحلية لتقوم باقامة الصناعة الثقيلة وانجاز (الثورة الديمقراطية) ، علما بانها مجرد مسمار ، لا ارادة له ، في الة الراسمالية العالمية ، رغما عنها وعن مشاعرها ! ان انظمة بكاملها ، وعناصر لها تاريخ وطني حافل ركعت على اقدام الامبريالية ، رغم استقلالها السياسي ، بمجرد ان حركت

الامبريالية اصابعها الاقتصادية والمالية المتغلغلة في طيات التكوين الطبقي والاقتصادي لهذه الانظمة .

ان الراسمالية اليوم ظاهرة (عالمية) ، (امبريالية) . ولم يعد ممكنا القول ابدا بامكان تحقيق القفزة الكبرى الى الامام باتباع الطريق (الراسمالي الوطني) ، كما حصل في الغــــرب . على النقيض من ذلك **فان تصفية الانظمة الاقتصادية المتناقضة ، اي الطبقية ، مرهون ، بصورة حتمية ، باختيار طريق الاشتراكيــة العلمية** . فلا نضال قومي (خالص) قادر على انجاز التحرير التام والوحدة ، ولا نضال اجتماعي ـ طبقي ، محلي ، منعزل ، قادر على ازالة البؤس والقضاء على التخلف . ينبغي ، اذا اردنا حقا التحرير والوحدة ، ربط النضال القومي بالصراع الطبقي الداخلي والعالمي ، واكتشاف الركائز الذاتية للطبقـــات الشرقية ، اي الداخلية ، والركائز الاصل ، اي الخارجية .

هنا يبرز ترابط (داخلي) عميق بين النضال القومي وبين الصراع الطبقي لا يستند على العواطف والرغبات ، بل على تحليل ملموس للواقع الملموس ، وباكتشاف قوانين عصرنا الموضوعية . فيصبح من الصعب جدا قبول مصطلح (الثورة القومية) بصورة مطلقة .

الثورة وسياسة حرق المراحل

مع ذلك لا زال ثمة التباس آخر قد نقع فيه ، بعد ابرازنا لاهمية وواقعية ارتباط النضالين الطبقي والقومـــــي ، فلربما يتصور البعض ان هذا الارتباط ، وهذا النفي (النقاوة) ثورتنــــا القومية من المضمون الطبقي ، قد يعني الشروع بالثورة الاشتراكية (فورا) متخطين المراحل الموضوعية التي تسبقها . وهــذا تصور

خاطيء وسطحي ينبغي ازالته .

لئن كان اصل مشاكل (حركتنا) القومية الراهنة (طبقيا) ، على الصعيدين الداخلي والعالمي ، فان ذلك لا يعني ابدا ان الثورة العربية ، في المرحلة الراهنة ، ثورة اشتراكية ، كما يظن بعض السذج او حارقي المراحل . **ينبغي التمييز ، في هذا الصدد ، بين الايديولوجيا ، المعبر عنها بفهم خاص للاوضاع والاهداف ، وبين الظرف الآتي او المرحلي ، المعبر عنه بتبني استراتيجية مرحلية .**

كيما نعرف الارض التي نتحرك عليها والاطراف التي نتعامل معها ، لا بد من معرفة وتحديد المحركات الاساسية في المجتمع وقواه السياسية والطبقية . فالعمل السياسي لا يتم ، كقاعدة عامة ، عبر قفزات مفاجئة لا جذور تاريخية لها ، بل انه يلوح عملا (تطوريا) ، تراكميا ، ينتقل من البسيط الى المركب ، ثم الى القفزة النوعية . وتحويل المجتمع ، ثوريا ، لا يتم بحركات ذاتية سحرية تستطيع الغاء قوانين الطبيعة والمجتمع وتحقيق معجزات شبه دينية ، بل على العكس من ذلك . **ان ابرز ما يميز العمل الثوري ، والتحويل الاجتماعي ـ الاقتصادي بالتحديد ، هو التحرك ضمن شروط وامكانات معروفة ، او محددة مسبقا ، ودون التطلع الى دعم قوى خفية ، غير بشرية ، يمكن لها ان تساهم في تحقيق معجزة .**

واولئك الذين يقولون بسياسة (حرق المراحل) يقع بعضهم في التباس خطير وقاتل : **فثمة قضيتان متميزتان تماما : قضية حرق مرحلة تاريخية موضوعية والانتقال الى اخرى ، وقضية حرق طبقة عاجزة ، او فئة منها** . فاذا كان ممكنا ، بل وجوهريا، حرق الطبقة البورجوازية العربية الذيلية الاستهلاكية وتجاوزها، فان ذلك لا يعني ابدا تجاوز مرحلة الثورة القومية . اذ لا بد من طرد الغزاة ، ولا بد من توحيد الوطن ، ولا بد من تحقيق اصلاح

زراعي جذري ، ولا بد من وضع اساس الصناعة الثقيلة الوطنية الخ . هذه المهام الحاسمة في الثورة القومية لا يمكن القفز من فوقها وحرقها ، وإلا كيف ننتقل الى مرحلة الثورة الاشتراكية اذا لم تكن المهام القومية المذكورة منجزة ؟

ازاء الضرورة العملية لحرق الطبقات الذيلية القاهرة ، وإزاء ضرورة انجاز المهام التي كان مفروضا بهذه الطبقات القيام بها ، تظهر الضرورة المطلقة والحاسمة لنهوض طلائع الطبقات الاكثر ثورية «تحالف العمال والفلاحين والاجزاء المنسلخة من البورجوازية الصغيرة» بإنجاز هذه المهام القومية ، وليس الغاءها وحرقها . نحن ازاء (استعاضة) عن طبقة اخرى ، وليس ازاء (الغاء) مرحلة تاريخية، موضوعية بمرسوم او قرار او مقولة .

اذن : على الصعيد الايديولوجي ، ينبغي تحديد طبيعة التناقضات وتحليلها على ضوء منظومة فكرية مميزة للحزب الثوري ، واكتشاف ما تنطوي عليه هذه التناقضات من خصوصية وتحيز . واستراتيجيا ، ينبغي البحث عن القوى والاساليب والتوترات والامكانات الكفيلة بالوصول الى اهداف محددة . في اطار (الاستراتيجية) يمكن النظر الى الثورة كثورة (قومية) اي يطغى عليها الطابع القومي ، في مرحلة معينة ، فتلوح التكتيكات الظرفية متطابقة مع ضرورات تحالفية محددة ، وقد تبدو متعارضة مع الايديولوجيا ، بل حتى مع الاستراتيجية احيانا . ولكن عندما نحاول اعطاء فهم نظري (خاص) ، طبقي ، للاوضاع ، فان الفهم الاستراتيجي لا يكفي ، ولا يجوز تحويله الى فهم ايديولوجي .

ضمن مرحلة تاريخية معينة ، تحكم نضالنا استراتيجية محددة تلتقي عندها مختلف الفئات والطبقات والاحزاب ، من ضمنها الحزب الاشتراكي العلمي . فاستراتيجية التحرير ، مثلا، تلتقي عندها احزاب العمال والفلاحين والبورجوازية الصغيرة ،

وافراد من البورجوازية الكبيرة والاقطاع ، بل وحتى بعض التيارات الدينية . لكن هذا الالتقاء لا يلغي الطبيعة الطبقية لهذه القوى ، بل يجمدها الى مرحلة لاحقة ، هي مرحلة التغيير اللاحق للتحرير . وعند استراتيجية الثورة الاشتراكية تتبدل تحالفات قوى استراتيجية التحرير ، ويبدأ المضمون الايديولوجي والطبقي بالظهور ، بصفته العامل الحاسم في تقرير مجرى الاحداث والصراعات .

بعض الاحزاب ، بعد التحرير ، وحتى في منتصف طريق الثورة القومية ، تطرح شعارات وبرامج وسطية : اشتراكية (عربية) ، أو (رشيدة) ، أو (تعاونية) ، او (اسلامية) ! اما البعض الآخر فيطرح شعارات وبرامج ليبرالية : البرلمانية ، الحريات الديمقراطية ، الخ ، اما البعض الثالث فيتبنى شعارات جذرية: اشتراكية علمية ، ديمقراطية شعبية ، منهج ديالكتيكي الخ .

هذا الفهم الاخير ، الفهم الاشتراكي العلمي ، يستوعب ضمنه ، وكجزء منه ، الفهم الاستراتيجي . لكنه لا يترك المجال خاليا له ابدا . من هذه الزاوية لا يجوز ابدا الوقوع في براثن الاستقامة (الارثوذوكسية) ، او الحنبلية (٤) ، المنشفية ، كرد فعل مباشر لسياسة حرق المراحل . ان رفضنا لسياسة حرق المراحل ينبع من خشيتنا الانزلاق في فخاخ (الذاتية) الطاغية على (الموضوعية) وتجريد العملية الثورية من اساسها الملموس الراسخ: الموضوعية ، وبالتالي اللجوء الى (المغامرة) اليسارية (٥) ، كتعبير

---

٤ ــ الاستقامة الارثوذوكسية، او الحنبلية ، يقصد بها الاتجاهات المتصلبة (نظريا) والرافضة لفكرة التطور والتأقلم . وهي ضد المبادرة الثورية والخلق الذاتي والاجتهاد .

٥ ــ ازالة التباس : نحن ضد الفكرة التي تقول بأن المناضل جيفارا =

قاصر عن اليأس من انضاج الظرف الموضوعي .

اما اذا فرض ظرف (خاص) فكرة تجاوز مرحلة ، او حرقها، كما حصل في منغوليا عندما انتقلت من النظام الاقطاعي الى النظام الاشتراكي دون المرور بالمرحلة الراسمالية ، فان ذلك ضرورة تاريخية ينبغي الاستجابة لها دون تردد .

ان (اختصار) المراحل ، كقاعدة ، وحرق المراحل، كاستثناء، ممكنان ، وأحيانا ضروريان ، في عصرنا الراهن . نحن لا نستطيع القول بأن من الضروري انتظار الاختمار الضروري لاي نهوض ثوري او تغيير اجتماعي ، لمجرد ان الاختمار مسالة موضوعية ، اذا كان ممكنا ان يساهم العامل الذاتي «البشر، الاحزاب، الوعي، المؤسسات ، الطبقة» في التعجيل باختمار الظرف ، وهذا هو اساس منطق جيفارا الماركسي اللينيني ، واغلب احزاب اليسار الشيوعي ، وغير الشيوعي في العالم .

اما المنطق (المنشفي) ، البليخانوفي ، البرنشتايني ، الكاوتسكوي ، فانه كان يرى ان الاختمار في الظرف الثوري ، او الانتقال الى الاشتراكية ، ينبغي ان يتم بعد (النضوج) التام للظروف والامكانات ، وبالابتعاد عن (المغامرة) و(الذاتية) . ولقد رفض لينين ذلك ، واكد انه لا يجوز لحزب ثوري الاستسلام لألية التطور في العوامل الموضوعية «الظروف ، القوى المتوفرة ، النضوج الجماهيري ، وضع الحزب الثوري الخ» بل لا بد من تدخل العوامل الذاتية «خصوصا الحزب الثوري القائد» في

= «مغامر يساري بورجوازي صغير» لقد كان جيفارا في سيرته وتنظيراته مجسد امين (لتيار) ثوري ماركسي لينيني ، وهو ، وان اعطى للمبادرة الثورية اهمية (خاصة) في عصرنا ، لم ينفِ القوانين الموضوعية وفاعليتها ، بل وقف ضد فكرة (الاستسلام) للواقع الموضوعي ولشروطه والية حركته .

انضاج الظرف وتخطي ما هو قائم .
ان (الاختصار) في المراحل ، والحرق في حالات (خاصة) ، ممكنان بفضل تراكم المعارف العلمية والتكنية وتنوع التجارب السياسية والاقتصادية ، ونمو النظم الاشتراكية ، وانتشار الافكار الاشتراكية العلمية ، وارتقاء نظرية التنظيم الحزبي الثوري «السرية ، والتسلسل الحزبي ، التربية الحزبية ، خضوع المؤسسات المهنية للحزب ، الديمقراطية المركزية ، طبقية الحزب ، تأثيره على القوات المسلحة في القارات الثلاث» ، وبروز العيوب الذاتية للراسمالية وعجزها الاصيل عن حل مشاكل الانسان .
لكن ذلك ، وان ازال غموض الكثير مَن القضايا العملية والنظرية بيد انه لا زالت ثمة ضرورة لتوضيح مراحل الثورة العربية : فرفض الحرق كقاعدة للعمل ، وتأكيد الاختصار لا ينفي (تداخل) مهام الثورتين احيانا ، الناجم عن (وحدة) الاداة القائدة للثورتين «القومية والاشتراكية» اولا ، وعن التشويه المتعمد الذي احدثته الظاهرة الامبريالية في مسار وطبيعة الاوضاع الاقتصادية والتكنية في القارات الثلاث .
فعندما تضطر طلائع الشغيلة للقيام بمهام الثورة القومية ، التي يفترض بالبورجوازية القيام بها، فانها تجد نفسها ازاء مهام متداخلة ، بعضها يعود للثورة القومية، والآخر للثورة الاشتراكية؛ كما ان التطويق الامبريالي ، يقابله التحالف مع القوى الاشتراكية العالمية ، يقود الى ممارسات وخطوات اكثر من قومية ووطنية ، وتدخل ضمن نطاق الممارسات والخطوات الاشتراكية .
لذلك ، ولتجنب الارباك ينبغي ملاحظة ما يلي :
أ ـ **الثورة الاشتراكية والسلطة الاشتراكية** : ليس ضروريا في عصرنا ، بل انه ضد اتجاه التاريخ ، ان تقود البورجوازية الثورة القومية . تلك المسلمة تؤدي الى قيادة الحزب الاشتراكي

العلمي للثورة القومية . هنا لا بد من التمييز بين (السلطة الاشتراكية) و(النظام) التحرري القومي . ان السلطة وان كانت اشتراكية الايديولوجيا ، الا ان النظام الذي تقوده ، في المرحلة الاولى ، ليس اشتراكيا بل نظاما (انتقاليا) يغلب عليه الطابع القومي . اما اذا اطلقنا على النظام صفة (الاشتراكية) فسوف نضطر للتنازل عن وضوحنا النظري ومهامنا المحددة ، مستسلمين لاوضاع غريبة جدا وغير ممكنة الفهم .

ب ـ الطابع (الغالب) والطابع (المتنحي) للثورة :

لكن الثورة ليست قومية (خالصة) ، كما اشرنا ، فكيف يجوز لنا نفي صفة الاشتراكية عنها ؟ الجواب بسيط : فعندما نريد تشخيص نظام ، او مرحلة ، يهمنا الطابع (الغالب) في تحديد هوية المرحلة او النظام وطبيعتهما . في المرحلة الاولى للثورة تطغى المهام القومية ، لذلك يقال ان (الثورة قومية) . اما في المراحل العليا ، فان الطابع الاشتراكي هو الذي يطغى ، شيئا فشيئا ، فنقول بأن (الثورة اشتراكية) ، ويحصل التطابق بين السلطة (الاشتراكية) والثورة (الاشتراكية) .

جـ ـ المضمون الاجتماعي ـ الطبقي للثورة :

ميزة الثورة القومية الراهنة ، موضوع بحثنا ونضالنا ، هي انها ليست ثورة قومية على النمط الغربي البورجوازي ، بل هي ثورة قومية ذات مضمون طبقي جديد : **انها ذات مضمون بورجوازي صغير اولا ، ثم ، في مرحلة لاحقة ، ذات مضمون اشتراكي علمي ، ايديولوجيا .**

واذا اهتممنا بالطابع المركب للثورة «ثورة قومية ـ طبقية» فاننا نستطيع تقرير مختلف أشكال الصراع المستقبلة ورسم اتجاهات التغيير المتوقعة ومعرفة أشكال التحالفات الضرورية ، وبذلك نحل واحدة من اكبر مشاكلنا الايديولوجية . اين تكمن الصعوبة اذن ؟ الصعوبة ، غالبا ، تتركز في اطار الاستراتيجية ،

لان اكتشاف الطابع الغالب ، او الاتفاق عليه ، من اصعب الامور واخطرها ان تناول مسالة العلاقة بين (القطرية) و(القومية) ، كمثال نموذجي ، سيكشف المصاعب الكبيرة التي تكتنف قضايا الاستراتيجية ، في ظرف كظرفنا .

التناقضات القومية والقطرية

في وطننا المجزأ منذ انحطاط الدولة العباسية ، والذي تعرّض كل قطر فيه لمؤثرات اقتصادية واجتماعية ودولية وجغرافية (خاصة)، لم يعد ممكنا قبول التقييم الواحد للاوضاع، والموقف الواحد منها . لقد تنوعت المشاكل وتداخلت واختلفت مستويات نضوجها وآفاق تراكمها ، بحيث اصبحت لكل قطر عربي (مشاكل خاصة) متميزة ناجمة عن (اختلاف) درجة تطوره و(نوعية) المؤثر الذي تعرّض له . وتلك حالة من التنوع في التناقضات ضمن الامة والشعب الواحدلا تسمح ابدا باعطاء احكام قطعية ، وحدانية بالانطلاق من مواقع قطر معين لفرضها على بقية الاقطار المكونة للامة وللشعب .

لم يحكم (الامة العربية) ، منذ أواخر ايام العباسيين ، اي خليفة او امير استطاع فرض نظامه ومركزيته على (الولايات) العربية الممتدة ما بين المحيط والخليج ، بل تتابع عليها امراء وملوك وسلاطين كرسوا التجزئة وحولوا العروبة الى مجرد (رابطة) ثقافية ، لغوية ، حضارية سالفة ، بعد خلق الفجوات الهائلة في بنية المجتمع العربي الاقتصادية والاجتماعية .

ولو نظرنا الى الاقتصاد العربي والتكوين الديموغرافي (السكاني) الحالي لوجدناه خير معبر عن هذه التمايزات في (درجة) التطور العام لشعبنا . فمصر ، مثلا ، تعتبر اكثر البلدان

العربية قدما وتطورا في صناعاته الحديثة ، فكان من الطبيعـــي نشوء رأسمالية مصرية قوية نسبيا . اما في اليمن الشمالي فان اســس النظام العبودي ـ الاقطاعي لا زالت هي المعول عليها ! وبين هذين النظامين تمر ، متتابعة ، بقية الانظمة العربية .

هكذا تمايزات لا تسمح لنا بأن نقول بأن (التناقض الرئيسي) في المرحلة الراهنة هو (تناقض قومي) فقط ، او انه (تناقـــض طبقي) فقط ، لاننا بذلك نسحب حكما (قطريا) على وضع (قومي) متنوع . ينبغي ، ازاء هذا التنوع ، تحديد القطر الذي نحن بصدد (تقييم) أوضاعه ، وملاحظـــة (المرحلة) التاريخيـــة و(تناسب) القوى ، وهذه الامور تختلف طبعا . لذلك فان حكمنا يتحدد على ضوء عاملين :

العامل القطري : فعبر تحليل أوضاع قطر معين نستطيـــع صياغة حكم وتحديد التناقض الرئيسي فيه .

العامل التاريخي : لكن هذا التحليل القطري خاضع ، بشكل وبآخر ، لطابع المرحلة التاريخية . فكون (اسس النظام اليمني)، هي نفس اسس النظام الامامي القبلية ، لم يمنع ، في ظـــــل الظروف العالمية المؤاتية بالنسبة للاشتراكية العلمية والمجافيـــة للراسمالية والاشتراكيات (القومية) ، من تبني الاشتراكية العلمية في جنوب اليمن ! لقد انبثق نظام عربي جذري ، ليس في مصر اكثر البلدان العربية تطورا صناعيا ، بل في اليمن الجنوبي ، التي تعتبر من الاقطار العربية المتخلفة . وتلك هي (مأثرة) العامـــــل الذاتي الكبرى ، اي الجبهة القومية ، التي فجرت كل اسس واطر العلاقات القبلية والاقطاعية والامامية ، بالاضافة الى العامـــــل (المساعد) : قيام النظم الاشتراكيـــــة في اكثر من ثلث العالم ، والتهاب الثورة الوطنية ، ذات الآفاق الاشتراكية ، او الثـــورة الاشتراكية ، في الثلثين الآخرين .

ان التنوع القطري يفرض نفسه عند وضع الاستراتيجيـــة

وتحديد طبيعة المرحلة . وبدون مراعاته نسقط في فخاخ الاحادية والتبسيط والالحاق . ففي قطر معين قد يكون التناقض الرئيسي مع الامبريالية (الجزائر اثناء الاحتلال) ، اي انه تناقض قومي ، بينما في قطر ثان ، وبنفس الوقت ، ثمة تناقض طبقي مع طبقة عربية قاهرة . وحتى التناقض الطبقي يتخذ اشكالا جد متنوعة: فقد يكون الخصم الطبقي من طبقات (اخرى) معادية ، وقد يبرز، بالنسبة للبورجوازية الصغيرة ، من بين صفوفها ، لكون فئاتها ذات وضع انتقالي ، فتنقسم هذه الطبقة وينشب قتال ضار ودام بين فئاتها .

اما بالنسبة للنضال القومي فانه ايضا متنوع الاشكال تبعا لنوع القوى الاجنبية المهيمنة ، ودرجة تطور القطر . فالامبريالية الفرنسية ، في الجزائر ، كانت امبريالية (دمج وفرنسة) ، بينما الامبرياليتين البريطانية والاميركية ، تهتمان فقط بضمان مصالحهما الاقتصادية والاستراتيجية ، ولا تدمجان هذه المصالح بسياسة الصهر القومي . اضافة لذلك ثمة نمط ثالث للامبريالية اشد خطرا وفاعلية : الامبريالية السكانية ـ العسكرية في فلسطين ، والتي انتجت دولة اسرائيل .

هذا التباين في (اساليب) الدول الامبريالية ، يفرض تباينا مقابلا في اساليب قوى الثورة : فسياسة الصهر القومي الامبريالي تستلزم تشديد من قبل الثورة على (الشخصية القومية) للشعب ، اما سياسة النهب والسيطرة العسكرية فلا تحتاج لاكثر من وعي (اعتيادي) قوميا ، ومن جهة ثالثة تفرض الامبريالية السكانية ـ العسكرية ليس التشديد على الشخصية القومية للثورة فحسب ، بل حشد كل القوى المتوفرة لدحر هذه الامبريالية .

هل يعني هذا التنوع عدم امكان تحديد التناقض الرئيسي على صعيد قومي ؟ وهل يعني وضع استراتيجيات (قطرية)

متعددة للثورة العربية ؟ الجواب على هذين السؤالين مشروط بملاحظة الاعتبارات التالية :

أ ـ في مراحل معينة يمكن القول بان ثمة تناقض رئيسي قومي واحد ، عندما يكون هذا التناقض من الحسم بحيث تتضاءل ازاءه مجموع التناقضات الاخرى وتلحق به ، كما هي الحال الان، حيث يهدد وجودنا كعرب ، كبشر ، وجود احتلال سكاني ـ عسكري تمارسه اسرائيل يتسع بهدف افناء (السكان الاصليين)، اضافة للاحتلال العسكري ، او المالي ، او الاثنين ، للامبرياليات الغربية . **ان تناقضنا مع اسرائيل والامبريالية (تناقض قومي) من حيث الشكل . ضمن هذه الحدود يمكن القول بان التناقض الرئيسي تناقض قومي .**

ب ـ لكن ذلك مجرد تحليل (شكلي) ، سطحي : اذ ان وجود اسرائيل ووجود الامبريالية في وطننا (نتاج) وجود الراسمالية (كنظام) ، وهي ظاهرة (طبقية) مباشرة ، **فالنضال القومي ، والتناقض الرئيسي القومي ، اذن ليسا مجردين من الطابع الطبقي ، حتى في أشد حالات تفاوتهما ، بل انهما ممتلئين بمضمون طبقي مباشر ، او غير مباشر دائما** . عند هذه النقطة تسقط كل المفاهيم القومية الخالصة ، المجردة من المضمون الطبقي . ومما يعمق هذا السقوط عجز وذيلية البورجوازية العربية عن قيادة النضال القومي (ضد الاستعمار) ، وتسلم الاحزاب الاشتراكية العلمية هذه المهمة .

جـ ـ كذلك يمكن القول بأن ثمة تناقض رئيسي طبقي واحد، في قطر معين ، عندما يتم طرد الامبريالية وركائزها المحلية . عند ذاك تصبح الصراعات الطبقية مستقرة ، نقية . لكن تفاوتها ايضا (شكلية) : **فوجود الامبريالية (عالميا) ، ووجود الانظمة المرتبطة بها هنا وهناك ، يضفي على الصراع الطبقي الداخلي مسحة (قومية) و(اممية) ، عبر محاولات الغزو الخارجي ، او دعم الفئات الرجعية**

المعادية في الداخل من قبل الامبريالية .

الحقائق المذكورة عن تنوع وتعدد التناقضات العربية لا تنفي ابدا وجود تناقضات مشتركة ، اي قومية ، يمكن اجمالها في تناقضين رئيسيين :

التناقض الرئيسي (الاول) : الصراع بين الامة العربية من جهة وقوى الامبريالية العالمية ، وبضمنها اسرائيل . هذا التناقض هو البندقية المصوبة الى راس العرب افرادا واحزابا وانظمة . اي انه تناقض حياة او موت .

التناقض الرئيسي الثاني : الانقسام الطبقي الداخلي . وهذا الانقسام حاد ، ومتنوع ، وغير متبلور (تاريخيا) ، ويعتبر اساس ومصدر قوة واستمرار التناقض الاول .

هذان التناقضان (الرئيسيان) مترابطان ومتداخلان ، ويغلب احدهما على الآخر ، حسب تغير (توترات) الظروف العامة . وعلى ضوء ترابطهما الديالكتيكي ، وليس الالحاقي ، يمكن القول بأن التناقض الرئيسي الغالب ، الاول ، الان ، هو تناقضنا مع اسرائيل ، بصفتها كلب حراسة للمصالح الامبريالية ، فالامة العربية مهددة بالانقراض وزوال الشعب العربي من خارطة العالم ، تماما كالهنود الحمر ، سكان اميركا الاصليون . لكن هذا التناقض الرئيسي ، الاول يستند على خلفية وضمانة داخلية : الانقسام الطبقي الداخلي ، الذي يعتبر التناقض الرئيسي الثاني حاليا .

بتعبير آخر : **الثورة العربية ، في المرحلة الراهنة ، ثورة (قومية) بآفاق اشتراكية مقبلة ومحتومة** ، والجسر الذي يربط الثورتين المتصلتين عضويا هو طلائع (تحالف) الطبقات المشتركة في الثورة والقائدة لها ، اي الحزب القائد .

اننا عندما نبدأ بتصفية الامبريالية والصهيونية نجد انفسنا وجها لوجه ازاء مقاومة الرجعيين العرب ! بل حتى ازاء بعض

(الوطنيين) العرب السابقين ! وهؤلاء يمثلون طبقة (محلية) ، تجر تصفيتهم الى تغليب الطابع الطبقي للتناقضات على الطابع القومي. ولقد اثبتت التجارب العملية صحة هذا الاستنتاج : فبالرغم من (انتساب) الملك حسين ، كمثل واحد فقط ، الى الامة العربية ، وادعاءه الاتصال بنسب (نبي العرب) الهاشمي ، قام بتصفية القواعد العسكرية للمقاومة الفلسطينية التي بقيت اسرائيل تحلم بتصفيتها والقضاء عليها ، وشنت حرب عام ١٩٦٧ لاستئصالها. كانت الامة العربية ، ولا زالت ، تعتبر المقاومة الفلسطينية (الامل) الكبير في الصمود وتحرير الاراضي المحتلة ، فجاء الملك (العربي) و(الهاشمي) ليقوم بما ارادت اسرائيل القيام به ! ولم يمنعه (رباط العروبة) من تصفية القواعد الاشد خطرا على كيان اسرائيل . فماذا حصل ؟

لقد اعقبت هزيمة عام ١٩٦٧ موجة (قومية) عارمة طغت على مظاهر الصراع الطبقي وقللت منه . واستمرت هذه الموجة الى ايلول عام ١٩٧٠ حينما فجّر الملك حسين صراعا داخليا ، عربيا، ادى الى تصفية القواعد العسكرية للمقاومة الفلسطينية ، وذبح اكثر من عشرين الف فلسطيني ! وهكذا قتل الملك من العرب ، في اشهر ، اكثر مما قتلت اسرائيل حتى حرب ١٩٦٧ !

ولم تتوقف هذه المظاهر عند حدود الاردن ، بل شملت اكثر من قطر عربي ، فراحت عناصر اليمين ، بدلا من حشد الطاقات وتمتين التحالفات الوطنية ، تقوم بعمليات (انقلابات) بيضاء ، او حمراء ، لتصفية دعاة الصمود ورفض الاستسلام ودعم المقاومة وضرب المصالح الامبركية !

اذن : وجد اليسار العربي نفسه (مجبرا) على اعادة النظر في (الطابع الغالب) للصراع، وكشفه عن الجذور الطبقية ـ الامبريالية لسلسلة التصفيات الدموية والسلمية لليسار العربي ، فتنحت، في فترة ما بعد ايلول ١٩٧٠ ، الصفة القومية لصالح طغيان

الصراعات الطبقية .

ولئن كانت متابعة التغيرات التي تطرأ على توترات الصراعات الدائرة تمكننا من تحديد التناقض الرئيسي الاول ، فان ذلك لا يكفي ، فلا بد من وضع استراتيجية (ثانوية) ، (قطرية) .

الاستراتيجية العامة القومية لا تكفي لحل كل ما يواجـــه الحزب الثوري المنتشر في اغلب اقطار الوطن العربي ، كحـــزب البعث الذي لا زال الحزب القومي الوحيد ، بل لا بد من تحليـل الاوضاع القطرية (الخاصة) ، ورسم خطة عمل خاصة ، على ان لا تكون متعارضة مع الاستراتيجية القومية .

ان ما هو خاطيء في اليمن الشمالي ، مثلا ، من وجهة نظر التكتيك ، هو صحيح تماما في اليمن الديمقراطي : فتبنـــي الاشتراكية العلمية في الشمال بصورة رسمية ، وطرح ذلـك كمطلب فوري وحاسم ، امر ينطوي على تجاهل غبي لظـروف النضال ، بينما يعتبر ذلك مهمة استراتيجية آنية حسمت فـي مؤتمرات (الجبهة القومية) ! نحن لا نستطيع القفز من فوق ما هو قائم الا اذا وفرنا الاساس المتين للقفز . والنتيجة الطبيعيـــة لذلك هي اختلاف استراتيجية الثورة اليمنية العربية في كـلا شطريها .

ولا يمكن تجنب سلبيات الازدواج المحتوم في الاستراتيجية (اي وجود استراتيجية قومية واستراتيجية قطرية) الا اذا كان قائد النضال حزب قومي ، له فروع في الاقطار العربية الرئيسية، فالاحزاب القطرية تبقى عاجزة (عمليا) عن وضع الاستراتيجيـة القومية الثورية التي تتجاوب مع تنوع الظروف العربية ، رغـم انها تستطيع تقديم تفسيرات نظرية صحيحة ومتقدمة .

ان التنظيم المركزي القومي للحزب الثوري ، هو وحده الذي يتيح انجاز مهمتين حاسمتين :

اولا : خلق الاداة القومية المنسجمـــة فكريا وسياسـيا

واجتماعيا . وهذا يحل مشكلة تباين وتأثر التطور الفكـــري والاجتماعي والسياسي بين مناضلي الاقطار العربية .

ثانيا : استيعاب مجموع التناقضات العربية ، الثانوية منها والرئيسية ، واكتشاف حجومها الحقيقية ، وتحديد التناقض الرئيسي الاول والتناقض الرئيسي الثاني ، عبر وجود (ممثلين) لاغلب الاقطار العربية في قيادات ومؤتمرات الحزب .

ولم يظهر في الوطن العربي حزب قومي يتميز بنظريـــة تنظيمية تتطابق مع الايديولوجيا الثورية ، سوى حـــزب البعث العربي الاشتراكي الذي يشمل بتنظيمه اغلب اقطار الوطن العربي، رغم فشل بعض المحاولات المقلدة لحزب البعث .

ما تقدم يشير الى اننا مجبرون عند تحديد التناقضات على الكشف عن خصوصيتها وشرقيتها ، ورفض التحديدات التقليدية الغربية الملائمة للغرب ، والا فان مجموع محاولاتنا ستبقى عرجاء، مريضة ، محبطة . ان الصين قد واجهت تناقضا رئيسيا اولا ، مع اليابان ، وتناقضا رئيسيا ثانيا ، مع الرجعيـــة الصينية . التناقض الاول فرض تحالفا وطنيا مع الكومنتانغ فنسي الحزب الشيوعي الابادات الجماعية التي قام بها تشان كاي شيك ضده من اجل الدفاع عن الوطن ، فأدت الجبهة الوطنية دورها فـــي النضال الوطني .

لكن هل يوجد بين الاقطاعيين والبورجوازيين العرب مـــن يفضل ، عمليا ، التحالف مع اليسار العربي ضـــد اسرائيل ؟ او انهم يربطون بين التصفية العملية لليسار العربي بالقضاء (النظري) على اسرائيل ؟

الجواب العملي على السؤالين السابقين وجدناه في عمليات التصفية الجسدية التي قامت بها الانظمة ضد اليسار والمقاومة ، وفي الاعلان الرسمي عن الاستعداد للاعتراف باسرائيل . ولقد جاء هذا الجواب المزدوج في وقت واحد ليؤكد استحالة اقامـــة (تحالف وطني) مع هذه العناصر .

تلك الحقيقة (ميزة عربية) ، وينجم عن فاعليتها تناقض رئيسي ثاني توام ومرافق للتناقض الرئيسي الاول ، بخلاف الثورة الصينية التي كان ثمة نوع من التسلسل التاريخي في تعاقب التناقضين الاول والثاني : دحر اليابان ، ثم دحر تشان كاي شك . لن نستطيع ابدا القول بان علينا دحر اسرائيل اولا ، ثم دحر الرجعية ، رغم اننا نريد ذلك حقا ، لان الرجعية قد شرعت (عمليا) بتصفيتنا جسديا ، وبانهاء تناقضها العملي مع اسرائيل .

اذن ، العلاقة بين التناقضين الرئيسيين الاول والثاني لا تخضع لتسلسل زمني متعاقب ومرسوم مسبقا ، بل لمواقف اطراف التناقض ودرجة خطورة كل منها . فيتغلب طابع معين على الآخر ، توامه ، الذي لا يزول ولا يلغى ، بل يبقى يمارس فاعلية (غير مباشرة) سرعان ما تطفو لتقلب ، من جديد ، مقاييس الصراع وضوابطه .

واذا كان سهلا ، عند وجود تناقض رئيسي واحد ، اتخاذ الموقع بعد تحديد قوى التناقض وآفاقه ، فان من اصعب الامور متابعة تغيرات العلاقة الدائمة بين النضالين القومي والطبقي ، بصفتهما تناقضين رئيسيين محايثين ، اي ان وجود احدهما شرط وجود الآخر ، لان هذه التغييرات لا تخضع لعامل واحد ، بل لعوامل عديدة ، متغيرة ، متداخلة ، متنوعة . وهذا واحد من اخطر مصادر تذبذب المواقف ، وسقوط الكوادر ، وفشل البرامج .

ملاحظات ختامية
الوسطية البورجوازية الصغيرة

في مراحل من وعيها النظري ، المستند على التجريبية

والانتقائية ، تصوغ البورجوازية الصغيرة مفاهيمـــا تهجينية ، بصدد المسألة القومية ، كما في المسائل الاخرى ، وقد سبقت الاشارة الى الكثير من هذه المفاهيم . ويمكن تلمس موقفها مـــن المسألة القومية عبر النقطتين التاليتين :

اولا : تعترف التيارات التقدمية من البورجوازية الصغـيرة الشرقية بالظاهرة القومية وتعتبرها ميزة واقعية تميز شعبا ما عن غيره . وهذا هو الجانب الموضوعي في تحليلها .

ثانيا : لكنها ، من الجانب الآخر ، تعتبر (الظاهرة القومية) فوق التعريف واكبر من التحديد . اي اننا لا نستطيع اكتشاف (جذور) الظاهرة القومية وطريقة تكونها ، او ارجاعها الى عوامل ملموسة ، واقعية ، حالية ، او مندثـرة ، نظرا لانها حالـــة (سايكولوجية) تستولي على الفرد بالفطرة ، او بالاكتساب ، مالئة عليه عالمه واختياراته ، ومقررة مختلف مواقفـــه وانتماءاته ، وبضمنها موقفه الطبقي الذي يخضع ، بطريقة وباخرى ، لانتماءه القومي . وهذا هو العنصر الذاتي في التحليل ، والذي يقيـم جسرا بين الفهم البورجوازي الصغير للمسألة القومية والفهـم البورجوازي الكبير لها . اذ ان هذه الذاتية هـي الغطاء لمختلف الميول القومية العدوانية ، او الاستغلالية ، والمجمـــدة للصراع الطبقي .

ان موضوعية البورجوازية الصغيرة تكمن في اقرارهــــا للظاهرة القومية كظاهرة خارجة عنا. لكن هذه الموضوعية لا تنفرد في تقرير موقفها القومي ، بل يدخل عامل ذاتي ، ليتقاسم التاثير مع العامل الموضوعي ، عندما تؤكد على (سايكولوجية) الظاهـرة القومية . ومما يزيد حدة الالتباس ويعمق غموضه هـو الاصرار البورجوازي الصغير على هذه المزاوجـــة والتهجين المتعمد ، واعتباره (ميزتها الخاصة) ، ثم تفسيره على انه (تهجين ديالكتيكي ضروري) ! وبذلك تسير على قدمين تنتميان لشخصين يسير كل منهما في طريق مضاد للطريق الذي يسير فيه الآخر !

ولئن كانت الظاهرة القومية (ظاهرة موضوعية) لا يمكن الا اقرار وجودها وفاعليتها التاريخية ، فان تقديم تفسير (ذاتي) لها لا يعني ابدا انها ظاهرة (نصف موضوعية) ، فالتفسير ليس (جزءا) من الظاهرة ، او طبيعة لها ، وانما هو امر (لاحق) على وجودها .

ادانة العدمية القومية

ان العدمية القومية ، اي رفض القومية او اعتبارها ثانوية ، لا تنبع من التفسير الملموس المذكور سابقا ، كما قد يخيل للبعض، لان تفسيرنا وتاكيدنا على ان الصراع الطبقي ــ ونتاجه الامبريالية العالمية ــ هما اساس الحركات القومية المعاصرة ، لا ينطوي على اي ضرب من العدمية القومية ، او تقليل من شان الحركات القومية . لقد انبثقت الميول العدمية ، كما حصل لدى روزا لوكسمبورغ ، من تسخير الحركات القومية و(الوعي القومي) لخدمة المصالح الاستعمارية للبورجوازيات الغربية ، ومن كون الصراع الطبقي هو الصراع الرئيسي والصراعات الاخرى ثانوية وملحقة .

اما لدينا فان الحركات القومية ذات طابع تحرري وعادل ، وقد اكتسبت مضمونا طبقيا تقدميا وثوريا ، ولذلك فان اي ميل عدمي قومي يشير الى ظاهرة مرَضية لا بد من معالجتها فورا وتطويق ردود فعلها السلبية .

الدور الاستثنائي للحزب القائد

اذا كانت الطبقات جنينية التكوين ، والاستراتيجية مزدوجة والظروف الموضوعية غير مكتملة النضوج ، فان الحل يكمن في

درجة كفاءة الحزب : ان حزبا ثوريا ، يلتزم بإيديولوجيا الطبقة العاملة ، ويناضل لاعادة خلق الانسان جذريا ، ويمتد تنظيمه ليغطي الساحة العربية كلها ، هكذا حزب هو وحده القادر على متابعة التغيرات التي تطرأ على العلاقة بين النضالين القومي والطبقي ، وبالتالي حل قضايا الاستراتيجية والتكتيك الاساسية، وتحقيق فرز وطني وطبقي حقيقي ، كما انه سيعجل في اختمار الظروف الموضوعية ويختصر مراحل التاريخ .

(آب ١٩٧١)

الفصل الثاني

ملامح النزعة الذاتية في اوساط الثورة العربية (*)

مقدمة :

ان (محاولة استخلاص الدروس من النكبة) كيما تكون موسومة بروح المنهج الجدلي ، المنهج العلمي الموضوعي ، ينبغي

(*) «رد على مقاله الزميل العفيف الاخضر المنشورة في مجلة «دراسات عربية» عدد ١٢ ، السنة الرابعة ، تشرين الاول ١٩٦٨ ، تحت عنوان (محاولات لاستخلاص الدروس من النكبة) .»

ان ترفع عن (اطلاق الاحكام القاطعة غير المسنودة) وأن «تعتمد الطريقة العلمية للبحث ، بمعنى الاعتماد على الوثائق والاحصاء والحوار المنطقي»(١) لا ان نطلق العنان للقرارات الذاتية «المسبقة» بصدد قضية ما ، لتكون الطابع المميز لنتائج تحليلاتنا ، دونما اي جهد ، عملي ونظري ، نبذله لسبر اغوار الواقع «الحقيقي» المتحرك ، المتغير ، المتسم بالعديد من الصفات التي ترفض القسر «البروكوستي» (٢) . وتكفي لوحدها ، اي الصفات ، لابراز النتائج الملموسة او الممكنة ، عبر ذلك الجهد العملي والنظري الذي تبذله طلائع الثورة العربية .

ان تاريخ الامة العربية المعاصر ، منذ ربع قرن تقريبا ، هو تاريخ حزب البعث العربي الاشتراكي (٣) . اننا لا نجد حدثا سياسيا خطيرا احدث تحولا اساسيا في حركة القومية النامية ؛ الا وكان خلفه نضال متنوع الاشكال ومتباين الشدة ، خاضه حزب البعث العربي الاشتراكي منفردا ، او متحالفا مع بعض القوى التقدمية .

وهذه الحقيقة ليست نتاج انحياز مسبق ، بل هي واقع يومي يمكن لمسه ماديا ، باعادة نظر بسيطة ، في تاريخ الثورة العربية المعاصرة . وفي ردنا هذا بعض المواقف والحقائق التي تبدد، كما نامل ، بعض الافكار الغائمة التي حجبت الرؤيا الصافية

---

١ ــ من الغلاف الخلفي لنفس العدد .

٢ ــ بروكوست : في الاساطير اليونانية تعني ذلك اللص الذي كان يسلب المسافرين ويعريهم ، ثم يمددهم على سريره فيقطع ارجلهم اذا كانوا اطول منه او يشدهم اذا كانوا اقصر .

٣ ــ انه ايضا ، وبدرجة مختلفة ، تاريخ الاحزاب الشيوعية ونظام عبد الناصر وبعض القوى التقدمية الاخرى .

عن بعض الافراد والجماعات . ولولا خطورة ما ورد في مقـــال الزميل العفيف الاخضر وقفزه من فوق المطيات (٤) «الاوليـــة» و«المتحورة» للتجارب الثورية ، لما وجدنا حاجة للرد عليه ، لان تاريخ الحزب ، من الوضوح والنصاعة ، بحيث لا تؤثر عليه مواقف «ذاتية» غير مدروسة . ان اقتناعي بأن الاحداث المتعاقبة ، قد تركت آثارا سلبية كثيرة شوشت صور الاشياء وجعلت (البعـض) يتخبط في دوامات مؤلمة من الصراع السياسي ، هو الذي دفعني للمساهمة في تبديد بعض الافكار الغائمة .

لذلك سأناقش ، بروح اخوية وفي «منتهى الصراحة» الزميل الاخضر محاولا حصر النقاش في نقاط رئيسية محددة ، معتمدا على ما يتوفر لديّ الان ، من الوثائق الرسمية والمواقف العملية التي لا تزال تؤثر سلبا وايجابا على مجمل حركة الثورة العربية .

ولقد كنت أنتظر العدد الاول من السنة الخامسة ، لاطلع على تتمة البحث كما اشار الزميل في نهاية مقالته، الا انني لم اجدها. ولهذا تاخرت في الرد عليه .

المنهج الذاتي والمنهج الموضوعي :

بين الذاتية والموضوعية هوة عميقة لا تردم : فالذاتيـــة بجنوحها نحو اضفاء صفات معينة غريبة لا علاقة لها «بالظاهرة»

---

٤ ـ ارجو الانتباه الى انني استعمل مصطلح (المعطى) بمعنيين مختلفين ، معنى فلسفي ينظر الى (المعطى) كشيء امام العقل وكما هو دون احداث اي تغيير فيه . ومعنى سياسي يعني نتائج التجربة وافرازاتها التي قد يكون بعضها خاما وقد يكون متحورا .

وبحركتها النشيطة لابراز جانب من جوانب الظاهرة العديـــدة واعتباره الظاهرة في كليتها وبانتقائها من قوانين الطبيعة والمجتمع المقدمات العامة التي تستجلب منها نتائج خاطئة كليا او جزئيا ؛ والتي على اساسها ، تقيم الظاهرة ، وبخلطها بين ما هو رئيسي وما هو ثانوي ، بين ما هو فعل وما هو انعكاس للفعل ، بكل هذه الخطايا ، وغيرها ، يجد المنهج الذاتي نفسه على طلاق ابدي مع المنهج الجدلي ؛ المنهج الموضوعي الذي ينظر الى الظاهرة كشيء «مستقل» له علاقاته بالظواهر الاخرى ، ويخضع لقوانين عامة ، موضوعية ، ليس للبشر ازاءها الا اكتشافها والتعجيل بإبـــراز فاعليتها .

ولئن كانت «الذاتية» ملازمة للمنهج المثالي ، ضمن مراحل عديدة ، الا انها تتزاوج الان ؛ بتوافق كامل ، مع اتجاهات تقتات على (هوامش) المنهج الجدلي وبعض قوانينه ، مستخدمة اياها في محاولة (بروكوستية) لتفسير بعض الظواهـــر ، تاسيسا علـــى مقدمات صحيحة ، ووصولا لنتائج خاطئة .

نزعتان خطيرتان عانت منهما الثورة العربية ، ولا زالت ، وهي تختط لنفسها طريقا متجددا ، حيا ، متفتحا : النزعة الذاتيـــة المزمنة ، والنزعة الموضوعية المجردة غير العلمية . وبالرغم مـــن تناقض هاتين النزعتين ، لكنهما تلتقيان عند نقطة واحدة : ارباك الجماهير العربية والتشكيك بقدرتها على استشراف آفاق غدها، وتطوير أدواتها الثورية الراهنة وصولا للاهداف العامة الرئيسية التي لخصتها الاداة الثورية الاولى (حزب البعث العربي الاشتراكي) قبل ربع قرن ، والتي اضحت الشعارات المركزية لجميع الادوات الثورية الاخرى .

وفي الوقت الذي اخذت تضمحل فيه النزعة الذاتية ، من حيث هي منهج متكامل ورسمي ، وتتلاشى في (بعض) الاوساط

الطليعية للثورة العربية ، نجدها قد تحورت في عملية دفاع ذاتي (مشروعة) تماما ، الى نزعات (فردية) او (جماعية) تستخدم ضربا من الاساليب والافكار (العلمية) و(الثورية) في محاولـــة لايقاف الفعل التغييري النوعي الذي يتكامل شيئا فشيئا ، عبر الاستفادة غير المحدودة من نتائج المراحل السابقة . وبدون الخوض في هذه التعميمات الواسعة ؛ ينبغي تحديد ضروب الممارسة الذاتيـــة الراهنة ، في دائرتي الفكر والعمل ، سواء منهـــا الفردي او الجماعي ، والقاء الضوء ، على خطورة هذه الضروب ومدلولاتهـا الاجتماعية .

مع ولادة المعسكر الاشتراكي ، واتساع جغرافية الثـــورة العالمية وصعود ايديولوجيتها العلمية، اخذت تبرز، رويدا رويدا، اشكال جديدة من الممارسة الذاتية تختلف شكليا مع المنهج المثالي التقليدي ، ولكنها تلتقي معه في النتيجة بمحاولتها ايقاف الثورة او ارباك طلائعها .

حقا لقد اندحرت (الهيجلية) بظهور (فيورباخ) المادي الميكانيكي، وحقا لقد برزت المادية الدياليكتيكية ، بعد ذلك ؛ كمنهج علمـــي وثوري اخذت تتضاءل امامه جميع المناهج المثالية وتحتضر . الا ان ذلك بالضبط هو المحرض الاول لنشوء الاشكال الجديدة من المثالية والذاتية .

ان الذاتية والمثالية لا تزالان نزعتين تمدان الرأسماليـــة العالمية بكل ما تحتاجه من تخريجات نظرية وفلسفية لتدعيـــم وجودها المنهار . ومهما حاولت الاشكال الجديدة من النـــزوع المثالي والذاتي التميز عن ايديولوجيا البورجوازية ، فهي تلتقي معها ، في اتجاهات نهلستية واغترابية وتبريرية استسلامية الخ .

فالاشكال الجديدة ، المادية الشكلية المبتذلة «الوجودية ،

الفرويدية ، الماركوسية» (٥) تبقى خارج تنظيم وايديولوجيا الثورة ، بالرغم من تحالف بعضها مع قوى الثورة احيانا . ولهذا فهي لا تشكل خطرا كبيرا ، لانها خارج معسكر ايديولوجيا الطبقة العاملة وتنظيماتها السياسية .

ومع هذا ، فلقد وجدت المثالية والذاتية ما تنفذان منه الى معسكر الثورة :

أ ـ فهي قد اكثرت من الخطوط المائلة ، ذات الاغراض التجسسية ، والتي كانت تنفذ ستراتيجيتها مباشرة ، فكانت ثمة منظمات واحزاب طابعها العام تقدمي وثوري ، وجوهرها ، رجعي مرتبط بستراتيجية الامبريالية العالمية .

ب ـ وهي كذلك ، وهنا الخطر الاكبر ، تستغل الثغرات الموجودة في ما بين قوى الثورة العالمية علىالصعيدين الايديولوجي والتنظيمي ، فتعمل على بلورة الخلافات السلمية وتحويلها الى عدائية ، او تنمي ضربا من التفكير ، عشوائيا وذاتيا ، يركز على مظاهر معينة ، متجاهلا الاخرى . او انها تساهم او تخلق الاجواء التي تؤدي الى تشنجات عاطفية ونرجسية عند تحديد طبيعة الاحداث والظواهر الخ .. وهي في جميع الاحوال ، وسواء كانت مرتبطة او نظيفة ، تصل الى خلق الارباك في صفوف قوى الثورة ، وتحول التناقضات السلمية الى تناقضات عدائية ، كما تبرز التناقض الثانوي ، وتجعله مظهرا غالبا للحركة الاجتماعية.

اذن ، فالذاتية والمثالية ، اندحرتا وضمرتا في حدود معسكر الامبريالية ، الا انها تحاول النفاذ الى ايديولوجيا الطبقة العاملة

---

٥ ـ هربرت ماركوس مفكر امريكي، يدعو الى مزاوجةالماركسية بالفرويدية، ويعتبر الطلبة فئة هامة للغاية ، لانهم لا يلعبون دورا انتاجيا وهذا ما يجعلهم ، وحدهم ، القادرين على تصور عالم جديد الخ .

عبر الاستغلال الكامل لكل الثغرات والسلبيات .

فما هي اشكال الممارسة التي تتصل ، بشكــــل وبآخر ، بالذاتية والمثالية ، ضمن صفوف الثورة العالمية ؟

مميزات النزعة الذاتية في اوساط الثورة :

أ ـ القصور عن الاحاطة بالواقع «كما هو» : القصور عـن الاحاطة بالواقع «كما هو» يتخذ اشكالا متعددة ، متباينة ، تصل في اختلافها الى حد التعارض الجذري . ان القصور غـير «الاجتهاد» . لان الاجتهاد عملية مسح خاص ، لظروف خاصة ، بهدى منهج ما . فهي عملية ضرورية وحتمية ، وتكتسب طابعيها (الضرورة والحتمية) من تصديها لتفسير عالم «معطى» ينطوي على اشكالات وتناقضات عديدة ومتنوعة ، لا يكفي التجريد الفلسفي لاستيعابها وحلها . اما «القصور» فهو (ضمـــور) على وجـه التحديد ؛ ضمور في الآفاق العقلية لاصحاب مناهج البحث ، يقود الى العجز عن تمثل المنهج ، وعلى نحو شامل لا يغفل ظاهرة ولا يتهرب من غيرها ، فيصبح الضمور ضربا من الرؤية الناقصـة والجزئية ، وفي نهاية الامر ارتماء صريحا ورسميا ، في أحضان المنهج الذاتي ؛ بعد عجز وانهاك عقليين استمرا لفترة طويلة .

من مميزات المادية الديالكتيكية ، انها تحيط بالواقع ، بنظرة شمولية ، نفاذة متمكنة ، لا تهمل الجزئيات ، لان مجموعها شرط الكليات ، وتبتعد عن تعقيد الواقع وتشويش الذهن الباحث ، بعرض الظاهرة مبتورة عن سياقها وفاقدة لعلاقاتها بالواقع الحي ، الفعال ، المتغير . بمعنى آخر ، ان مـــن القوانين الاساسيـة للديالكتيك النظرة الشاملة للواقع «كما هو» لا كما ينبغي ان يكون. وبدون هذه الخطوة «الاولية» يصبح التحول مستحيلا ؛ وخطرا

على حركة التطور ذاتها .

اما المنهج المثالي والنزعة الذاتية ، فهما يخلطان بين الظاهرة (كما هي) وبين فهمنا وتحليلنا (الاولي) لهذه الظاهرة . اي ان الظاهرة ترصد من خارجها ، بعيدا عن الممارسة ، وباستكانة كاملة (النماذج) و(تركيبات) عقلية تكاد ان تكون خالصة . ثم يتحول النموذج او التركيب النظري الى الظاهرة عينها عبر عمليات قسر وتحوير نظريين . وهكذا يصبح فهمنا للظاهرة لا اكثر من تجريد نظري مقطوع الصلة بالواقع ، فيجد المفكر نفسه متضائلا ازاء اشكالاته ، مما يدفعه للاغتراب والانطواء على نفسه في ردود فعل انعزالية صوفية ، او بتحطيم النموذج الاول ، وبناء نموذج ثان لا يقل عن نموذجه الاول انفصالا عن الظاهرة ذاتها ، وبذلك يدخل حلقة مفرغة من النشاط الذهني لا تؤدي في افضل الاحوال الا الى وقوف المفكر الذاتي في مستقيم طويل لا يلتقي ابدا مع المستقيم الموازي له مهما كانت النوايا والرغبات .

ان رغبة الذاتي في بناء الواقع بشكل مطابق للصورة او النموذج الذي رسمه في ذهنه ، واصراره على اعادة بناء نماذج جديدة (عقلية) بعد فشل سابقاتها ، ولا تختلف عنها يجره الى الانعزال حتى عن الظاهرة الاصلية ، اي الظاهرة «كما هي» ، فتدخل في اعتقاده يقينيات وهمية تكون مرتعا لاوهام واحلام ميتافيزيقية تقتل فيه ما تبقى من اشلاء المنهج الديالكتيكي .
الشرطان اللذان توفرا للمفكر الذاتي ودفعاه قسرا ، للانعزال وقطع صلته بالمنهج الديالكتيكي هما : رؤية الواقع من جانب واحد او جوانب قليلة ، ومحاولة فرض تصور مجرد لهذا الواقع وهما خطوتان متلازمتان ، تكمل احداهما الاخرى . لان رؤية الواقع ناقصا ، او جانبيا ، لا تؤدي الا الى تصورات مريضة وناقصة ، لا تتفاعل مع الواقع وتترفع عن مزاوجته مهما بدت هذه التصورات (لطيفة) ومنطقية ، لطافتها اكتسبتها من سهولة تركيب نماذج

قبلية خيالية، اما منطقيتها فقد استمدتها من الشكليات الخارجية لهذا المنطق المتميزة بالوضوح والتماسك الظاهريين .

ب ـ الاحكام المسبقة : النتيجة الطبيعية ، كما قلنا ، للقصور عن الاحاطة بالواقع «كما هو» ، هي نظرة ناقصة له وفرضيات مجردة . والفرضيات المجردة ، في جوهرها ، مشروع وبداية عمل . فهي اذن ، خاضعة للتحوير ، بل وللنسف ، احيانا ، بكاملها ، خصوصا اذا كانت فرضية يصعب على بانيها التميز بين الواقع والفرضية التي نكونها عما ينبغي ان يكونه . هذه مسلمة يعرفها (ابسط) مطلع على المادية الديالكتيكية ، او حسب تعبير الزميل الاخضر (تلاميذ المدارس) .

ولكن .. ما هي النتيجة اذا كانت الفرضية مبنية على تصور ناقص او جانبي للواقع ، وجاءت الادلة ، او التطبيق العملي لتكشف عن نقصها ؟

ثمة نتيجتان : الاولى : اكتشاف نقص الفرضية ، ومن ثمة، اعادة النظر في «كيان» الفرضية ، وبناء فرضية تستجيب لحركة الواقع ودرجة توتر تناقضاته . وبذلك يحافظ المفكر على طابعه الديالكتيكي .

الثانية : ان يجنح المفكر الى اعتبار الخطأ ناجما عن الواقع ذاته ، او عن نتاجاته ، اي ظواهره ، وليس ثمة اي عيب في فرضيته . وحتى في حالة اقراره وجود الخطأ ، فانه لا يعدو كونه خطأ بسيطا وثانويا لا ينسف جوهر الفرضية .

وهذا يعني :

١ ـ المحافظة على الفرضية الاولية مع تغيير طفيف . اي انه يعود مرة اخرى لتفسير الواقع بنفس الفرضية التي رفض الواقع مزاوجتها . دون انتباه «كامل» الى ان هذه العملية تؤدي ، في آخر الامر ، الى التخلي عن المنهج الديالكتيكي ، والدخول في تعارض حاد ومزمن معه .

٢ ــ والدخول في تعارض حاد مع المنهج الديالكتيكي لا يعني الا القبول بالمنهج المثالي ، سواء رفضنا ام قبلنا ، لان العالم لا يتسع ولا يوجد فيه اكثر من منهجين : منهج ديالكتيكي ومنهج مثالي . وهذا ما اكدته التجربة الثورية العالمية ، ابتداء من بليخانوف الذي عجز عن رؤية مناخ الثورة الذي تهيأ وراح يدعو لانتظار المزيد من الاختمار ، وانتهاء بجارودي ، عضو المكتب السياسي للحزب الشيوعي الفرنسي ، الذي ما ان تحرر من السيطرة الستالينية ، التي كان من ابواقها ، حتى اخذ يمارس ضربا من النشاطات الفلسفية والسياسية ، هادفا من ورائها الى الانقضاض على جوهر الماركسية وروحها ، لا الممارسة الستالينية منها ؛ كما يدعي . ولقد كشفته تماما مواقفه السياسية الاخيرة المعادية لتحرك حلف وارسو في تشيكوسلوفاكيا ، حيث هاجم تدخل الحلف منطلقا من مواقعه الفكرية الليبرالية السيئةالصيت.

ان الدخول في تعارض مباشر مع المنهج الديالكتيكي ، اي رفض الخضوع لمدلولات التجربة ونتاجات الممارسة اليومية ، تمهيد منطقي لتبلور ذلك الميل الذاتي العارم لتصور الاشياء من خارجها ، بتجريدها من علاقاتها وعزلها ، اي التصورات ، عن تأثير التجربة . فالاحكام المسبقة نتيجة منطقية لقصور عن رؤية الواقع «كما هو» قاد الى فرضيات وتكوينات خاطئة ، او ناقصة، وعندما خضعت للتجربة دخلت في تعارض مزمن مع حقائق الممارسة ، نتيجة اصرار المفكر على اثبات صحة فرضياته مهما استنكف الواقع عن التعامل معها .

وهذه العملية الطويلة تخلق تعقيدات نفسية واجتماعية وثقافية تنعكس في سلوكية المفكر وتحصره في اطار اطلاق الاحكام المسبقة ، لدرجة انه يعجز عن التخلص مما فرض عليه من اطارات .

وفي محاولة لدراسة سريعة ، كهذه ، لمسالة الاحكام المسبقة،

يجب التمييز بين الاحكام المسبقة التي تطلقها مجموعات (ماركسية) وبين تلك التي تصدر عن مجموعات مثالية . اذ ان الاحكام المسبقة هي الابتداء ، هي الجوهر والاساس في المنهج المثالي ، لان المثالي يكون صورة عن العالم ، وعن الواقع ، لا ((كما هو)) بل كما ((يريده)) المفكر . فهو اذن يرفض ، ابتداء ، معطيات التجربة ونواتجها الرئيسية ، وهو ، ابتداء ايضا ، يستنكف عن التعامل مع الواقع الا بالحدود التي تثبت صحة فرضياته . فالاحكام المسبقة ، بهذا المعنى ، ظاهرة جوهرية وطبيعية في المثالية .

اما الاحكام القطعية التي يطلقها مفكر مادي ديالكتيكي ، فهي على عكس الاولى الانتهاء ، هي المظهر والسطح . فالمفكر الثوري يبدأ بدراسة الواقع ((كما هو)) مستهديا بمنطق ديالكتيكي واضح، لكنه ، لسبب من الاسباب ، يعجز عن دراسة الواقع ((كما هو)) ، او يتجاهله ، فيقوده عجزه وتخبطه الى الارتماء في احضان المثالية ، او المسخ المثالي الجديد للمادية الديالكتيكية .

هنا تكون الاحكام المسبقة نهاية المطاف ، نهاية العلاقة مع الديالكتيك وبدء التزاوج مع المثالية . وهذا فرق هام يستدعي الانتباه اليه ، لانه يمارس تاثيرا خطيرا على اجزاء معينة من قوى الثورة ، نظرا للماضي ، او الشكل الديالكتيكي ، وما يعنيه .

وكلما عجز المفكر الذاتي (المثالي الجديد) عن تغيير الواقع ، اغرق في مقولاته المجردة(٦) وتطرف في التصدي للعناصر المتطورة النامية ، والتي تصنع التاريخ عبر فعل متتال ، مؤثر ، وفعال

١

٦ ـ هنا تبرز ضرورة التمييز بين (التجريد العلمي) الذي هو خطوة في نظرية المعرفة المادية ، والتجريد الميتافيزيقي الذي هو نهاية المعرفة ومركزها وجوهرها في المثالية .

لا يقف عند حدود التأمل النظري ، بل يتجاوزه الى الفعل الثوري .

جـ ـ تجاهل امكانات الواقع الهائلة : كما كان القصور عن الاحاطة بالواقع «كما هو» ممهدا طبيعيا لاطلاق احكام مسبقة لا تتعامل مع التجربة ، فان هاتين الظاهرتين ، مجتمعتين ، تؤديان بالضرورة الى تجاهل امكانات الواقع الهائلة ، والتركيز على قوى وامكانات محدودة منه ، ورفض اعادة النظر في حكمنا السابق على «كفاءة» و«طبيعة» اداة ما ، او تحديدنا لهوية ظاهرة معينة. اي ان الذاتية لم تعد مجرد تطرف في تصورات ميتافيزيقية وحولاء ، بل اصبحت «مرضا» خطيرا يقارب من النرجسية . فيتهيأ للفرد الذاتي ان لا شيء يقيني ، او صحيح ، الا ما خرج من دائرة نشاطه الذهني والحدسي ، وما تعرضه الطبيعة والمجتمع من ظواهر ، ما هي الا محض تصورات مشوشة لا ينبغي التعويل عليها كثيرا ، لان «المعطى» ما دام بدائيا ، خاما ، فمن الخطورة التسليم بنتائج تجربته المباشرة . وما يجب فعله هو ترك مهمة البناء ، بناء النماذج والفرضيات ، للمفكر ، حيث انه بواسطتها يتمكن من احتياز الواقع وفهمه .

ان خطا رفيعا ، قد تصعب ملاحظته احيانا ، يفصل بين الذاتية النرجسية هنا ، وبين دور العامل الذاتي ، او «لحظة»(٧) الفعل في وحدة ديالكتيكية قطباها الخارج «الطبيعة والمجتمع» والانسان . فالمعرفة تترسب وتتبلور عبر احتواء «الانسان» بنظرة نفاذة تشريحية للظاهرة ، وبحثه عن مدلولاتها وعلاقاتها . ان الظاهرة تكون ، ابتداء «معطى» عاما يشوبه الغموض ومقاومة

---

٧ ـ اللحظة هنا تعني القوة التي تنقلنا من الفكرة الى نقيضها تبعا للمنطق الجدلي .

الاحتياز ، الا ان فاعلية الانسان ونضاله العملي والنظري يمكنانه من فهم الظاهرة واحتيازها . وهذه العملية ، عملية التغيير ، ليست احادية الجانب ، فالانسان بدوره ، يتعرض لسلسلة من التأثيرات التي تخلقها الظاهرة على بدائيتها وغموضها ، فتضيف الى الانسان معارف جديدة وتغني وعيه ، وتحور فرضياته . اللحظة الانعكاسية ، لحظة تأثير الخارج ، تجد فاعليتها في دفع الانسان للفعل ، للقيام (بلحظة) الفعل ، ولحظة الفعل تكمن فاعليتها في القيام بالفعل ، في خلق ذلك التفاعل والتغيير الذي لا يتم الا ضمن وحدة خلق ديالكتيكي .

الذاتية ، لا تكتشف في هذه العملية ، الا دور الذاتية ، او لحظة الفعل ، بينما تتجاهل او تقلل من دور «لحظة الانعكاس» ؛ او تأثير الخارج . فما دام الخارج «محض ارادات للفكر وتجسيد للفكرة ـ الهيجلية ـ » فانه لا يصل في فاعليته الى مستوى فاعلية الذات .

والمادية الميكانيكية ، تقصر ، على العكس من ذلك ، دور الذاتية ، على تلقي تأثيرات الطبيعة على الانسان ، التي هي العامل الحاسم في عملية الارتقاء الديالكتيكي .

وكل من هذين الاتجاهين المتعارضين يجد له الكثير من الاسانيد التي تدعم مواقفه وتبرزها ، وعلى نحو ذكي احيانا . وكثيرا ما يجد المادي الديالكتيكي نفسه في مواقع ذاتية او ميكانيكية دون ان يعلم او يتعمد . وهذه الحالة تحدث عندما تضيع عليه الخطوط الفاصلة وينغمس في جانب معين من جانبي وشرطي عملية المعرفة .

في حالة (الذاتية) ما ان يغفل المفكر بعض امكانات الواقع ، ويتجاهل تأثيراتها ، حتى ينساق تدريجيا ، نحو مواقع الذاتية ، التي تخرجه من دائرة المادية الديالكتيكية. ان المادي الديالكتيكي، في دراسته لظاهرة ما ، لا بد له من معرفة تاريخ هذه الظاهرة،

والعوامل المؤثرة عليها ، وتأثير هذه الظاهرة على بقية الظواهر ؛ والامكانات التي تمتلكها في اللحظة والمكان المعينين ، واحتمالات تطورها ونموها ، وعلاقتها بالطبقات الاجتماعية القائمة ، ودور هذه الطبقات ؛ ودرجة التطور الايديولوجي العامة والخاصة ... الخ . ان دراسة الظاهرة على هذا النحو يتيح للمفكر النجاة من الانزلاق في مهاوي الذاتية ، ويضعه دوما ضمن حدود الديالكتيك المادي . وعلى العكس من ذلك ، ما ان يتجاهل ، اي جانب من جوانب الظاهرة وعلاقاتها وتاريخها ، حتى يجد نفسه متخبطا في امور عديدة لا يجد منها مخرجا ، ثم تتكدس عليه المظاهر العديدة للظاهرة ذاتها ، فلا يجد متنفسا الا في تشنجات وعواطف حارة وتطرف نهلستي .

د ـ التخبط في استعمال المنهج الديالكتيكي : لقد استطاع المنهج الديالكتيكي ان يقدم صورة حية وحقيقية للعالم ، من خلال تطبيق قوانينه (العامة) على ظواهر الحياة ، باعتباره مرشدا نظريا ومؤشرا للمحركات (الاساسية) في الطبيعة والمجتمع . ان الايمان بالمنهج الديالكتيكي لا يعني انتقاء ما يعجبنا منه ، والتخلي عما لا يعجبنا . ان نزوعا ذاتيا كهذا يكشف ويعري الجذور او التأثيرات الاجتماعية التي اثرت على المفكر . لان هذا المنهج شمولي ومتكامل وله صفة الترابط . فكل قانون ؛ كما لاحظنا ، يتصل بسابقه ولاحقه ولا يجوز اقتطاع قانون ما او اهماله ، لمجرد مزاج متخلف؛ ما دام تلخيصا عموميا لتجارب عديدة ترتبط احداها بالاخرى برباط شامل . ان الاخذ بالمنهج الجدلي بكامله ، لا يعني جمودا «دوغمائية» بل ، بالضبط ، يعني فهما حيا ، حقيقيا لدور هذا المنهج . فما دام خطوطا عامة ، تلخص تجارب سابقة وتعتمد في فاعليتها على العودة الى اختبار التجربة ، فانه ، اي المنهج ، يكتفي بالارشاد والتوجيه وتحديد طرق البحث . اما التحليل وابراز خصوصية الظاهرة فذلك يعود الى العامل الذاتي ودرجة

تطوره . من الخلط بين الدوغمائية وديالكتيك المعرفة ، برز ضرب من طرق البحث ، يعتمد على الانتقاء والاختيار من مناهج عديدة، ومحاولة التوفيق بينها . فنرى الباحث ينحو تارة منحى علميا وديالكتيكيا رائعا بينما يجنح بعد ذلك الى تشنجات عاطفية تجعله يناقض منطلقاته الاولى بتخريجات غريبة مناقضة وذات طابع وسطي يتصل بأطرافه مع مختلف الاتجاهات المتباينة . وهذا ضرب من الانتقائية يتميز عن الضروب الاخرى في قدرته على التملص واعطاء التبريرات ، ما دام يستخدم في هيكل بحثه المنهج الجدلي بتمكن ومقدرة . ان ما يميز البحث العلمي عن سائر النشاطات الذهنية ، انه بحث جاد ، هادىء ، متزن ، يعتمد على الوثائق والحقائق الثابتة ، ويبتعد عن المغامرات الذاتية والتشنجات العاطفية الانفعالية . والا فانه يتحول الى اتهامات صحفية سطحية تخرج البحث عن دائرته العلمية . صحيح ان الانسان «لحم ودم» الا ان الباحث الذي يقرر مصير طبقات وامم ، على افتراض ذلك ، لا ينبغي له الا ان يرصد ما هو موجود لكي يستطيع ان يقول ما ينبغي ان يكون وسيلة لتغيير ما هو موجود . واذا ما انفعل فلا يجوز ان يتعدى الانفعال حرارة الكلمة ليحرق الافكار ذاتها .

هـ ـ الشكلية في معالجة الظاهرة : ان الظاهرة التي ندرسها ليست على قدر مطلق من الامكانات او التأثيرات ، انها ظاهرة طبيعية او بشرية ، وهي ، بطبيعتها ، محدودة التأثير وعندما نضع الظاهرة بين قوسين ، ونسلط عليها الاضواء الساطعة ؛ ونحمل المبضع فنشرح بقساوة ، فان ابسط مسلمات البحث العلمي ، تعلمنا ان نقتصر في استنتاجاتنا على ما تحتمله الظاهرة ، دون انتظار ان تقدم معجزات خيالية تشبع طموحنا . فاذا ما حاولنا ان نجد مبررا او (ضحية) لاخفاقاتنا المتتالية عن احتياز شيء ما، سلطنا كل لومنا وتقريعنا عليه ، بل واتهامنا تلك الظاهرة بشتى

التهم ..

وبقدر ما تختلط الصور والظواهر في ذهن المفكر ، يجـد نفسه عاجزا عن ادراك المحرك الرئيسي فيالمكان والزمان المعينين. اذ ان الظواهر الاجتماعية تتعدد ، وبتعددها تتعدد المحركات . ثم يضاف الى ذلك التعقيد تعقيد آخر ، هو عدم القدرة على التمييز بين المحركات الثانوية والرئيسية . ان هذا الخلط ، يقود المفكر ، في افضل الاحوال ، الى حلول سطحية ، مرتجلة ، لا تعالـج اساس المشاكل ومنبعها ، بل تكتفي بإزالة الطفح الجلدي بسكين حادة اعتقادا منه ان الطفح قد زال نهائيا !

***

فماذا فعل الزميل الاخضر عند تناوله المواضيع او الظواهر السياسية ؟

لقد تورط الزميل في سلسلة من الانحرافات الذاتية البارزة حيث انتقل من ذلك التمكن الجيد في شرح ظاهرة الاستعمـار وتأثيرها على دور البورجوازية الوسطى الوطنية ، ومن ثمـة التغييرات التي طرات على (اداة) الثورة الديموقراطية القوميـة وطبيعتها ، الى التخبط وانتحاء اساليب مثالية في معالجة مسائل (اداة) الثورة العربية وعلاقتها وتكتيكها العام السياسي .

وبالرغم من ان اسقاط البورجوازية الوطنية وكشف علاقتها العضوية بظاهرة الامبريالية ، وما ينجم عن ذلك من تصدي اداة الثورة الاشتراكية لانجاز مهام الثورة القوميـة الديموقراطية ، بالرغم من ان هذا الكشف قد تم على يد حزب البعث العربـي الاشتراكي وبعض المثقفين التقدميين منذ مراحل طويلة ، الا ان ذلك لا ينتقص من اهمية محاولة الزميل (الاخضر) واعتماده على

مصادر غربية تؤكد مقولات البعث بهذا الصدد .

المسائل الرئيسية :

اولا : ادوات الثورة العربية

أ ـ طبيعتها : تطرق الزميل في بحثه الى دور الطلائع السياسية وتأثيرها على مسيرة الثورة العربية ، ولخص سمات هذه الطلائع بتجريد رياضي تام ، في انها بورجوازية صغيرة دون بذل جهد ، ولو بسيط ، للتحري عن الاختلافات الدرجية والنوعية فيما بين شرائحها الاجتماعية ولو انه اتعب نفسه في بحث هذه الاختلافات بنسبة ١٠ بالمئة من تعبه عند بحثه ظاهرة الامبريالية واثرها على الثورة الديموقراطية ، لما تورط في تناقضاته . لقد تخبط في تحديد طبيعة هذه البورجوازية «الصغيرة» : هل هي وطنية ؟ ام عميلة للامبريالية ؟ تارة يقول انها وطنية وتقدمية :

«اولى هذه الملاحظات ان شعار الوحدة العربية الشاملة لم يعد ، كما كان لبضع سنوات خلت ، غريبا في مستوى المثقفين والقيادات السياسية في المغرب . وذلك برايي عائد الى عوامل في طليعتها ثلاثة :

١ ـ المد العارم لايديولوجيا الوحدة الشاملة الذي زامن واعقب ميلاد الجمهورية العربية المتحدة .

٢ ـ الدعم الرائع الذي قدمته القيادة الناصرية وكل شعوب الامة العربية للنضال الجزائري في المغرب العربي وللثورة الجزائرية بالاخص . يكفي ان يصرح (لاكوست) جلاد الجزائر سنة ١٩٥٦ تبريرا لاهداف فرنسا الخاصة من العدوان الثلاثي : «حرب

الجزائر نربحها على ضفاف النيل» .

٣ ـ انتصار الجناح العروبي الوحدوي من قيادة الثــورة الجزائرية في صراع صيف عام ١٩٦٢ على السلطة (٨) .

ثم يقول بعد شرح تأثير الامبريالية على الطبقة البورجوازية العربية وتحولها الى طبقة ذيلية عاجزة «نظرا للعجز الكامن في بنية الراسمالية العربية ولقصور الشغيلة العربية العددي والتنظيمي العائد لظروف تاريخية حينية ، فان البورجوازية المتوسطــة والصغيرة القومية ، بدرجات متفاوتة ، هي التي آل اليها تنفيذ مهام الديموقراطية البورجوازية . وهي مسنودة واحيانا مدفوعة من الجماهير» (٩) . ص ٤٦ ـ ٤٧ .

وفي ص ٥٣ يقول : «هذه العوامل جعلت البورجوازيــة الصغيرة العربية والعناصر الاكثر قومية من الفئات المتوسطة او المستنيرة تضطلع بمهام النضال التحرري والبناء القومي» .

الا ان الزميل الاخضر يقع في تناقض مزمن ، حين ينقلب على قومية ووطنية البورجوازية الصغيرة ، فلا يكتفي بالدعــوة لاسقاطها عن سدة القيادة ، بل يذهب الى اتهامها بالتواطــؤ والخيانة : «مصلحة الطبقات والعشائر والزمر البيروقراطيــة البورجوازية الحاكمة الان في الانفصال . انها تخشى ـ وهي من وجهة نظر مصالحها الانسانية على حق ـ ان تضيع بالوحــدة امتيازاتها وعروشها وكراسيها ، بل وجودها ذاته . ولهذا فان هذه الانظمة رغم الفروق الكمية والنوعية بينها باستثناء بعــض العناصر النادرة هنا وهناك وفي القطرين المصري والسوري لــم تستطع ـ على افتراض انها جميعا غير مرتبطة بالاستعمار وهــو

---

٨ ـ دراسات عربية ، عدد ١٢ ، تشرين اول ١٩٦٨ ، ص ٤٣ ـ ٤٤ .

٩ ـ دراسات عربية ، العدد المذكور ، ص ٤٦ ـ ٤٧ .

سلفا افتراض تحكمي ـ فكاكا من تلاقي مصالحها موضوعيا مع مصالح الاستعمار الجديد برفض الوحدة قولا وفعلا او بتأييدها قولا ورفضها فعلا ، ولا يهم هنا ان المعاذير شتى . فالهدف واحد : اثناء لقاء القمة الخماسي الذي جرى في القاهرة اثر عدوان يونيو بين ج.ع.م. ، وسوريا ، العراق ، السودان والجزائر ، كان رد فعل العقيد بومدين عن مشروع الوحدة الرباعية الذي باغت به الوفد السوري المجتمعين : «الجماهير عندنا تحب الوحدة ، ولكن الجزائر بعيدة عن المشرق . وهذه هي المشكلة» (١٠) .

وفي ص ٦١ يقول الزميل الاخضر «الطبقات الحاكمة العربية شبه الاقطاعية العشائرية البونابارتية والبيروقراطية البورجوازية المعادية موضوعيا شاءت ام ابت للوحدة لانها معادية للجماهير» . واذا كان الزميل هنا يعمد الى اسلوب مقطع متداخل في الكتابة، ويحاول التهرب من تحديد اتهاماته ، الا انه يحددها في مجالات اخرى : «الانظمة القائمة الان بمختلف هوياتها لم تحقق الوحدة ولا في ابسط وادنى مستوياتها : وحدة العمل وبعضها ، وحتى الانظمة التي يقال عنها انها مهياة للوحدة لا تفكر حتى مجرد التفكير فيها» (١١) .

الكاتب ، يلوح كما يبدو ، قارئا لعقول البشر ، على طريقة «التلباثيين» والا فكيف استطاع الجزم بأنها «لا تفكر حتى مجرد التفكير فيها» ؟ ان تتهمها بأنها غير جادة وغير قادرة ، فذلك ممكن

---

١٠ ـ هذا النص المنقول عن بومدين خاطىء ، اذ ان بومدين قد اجاب الوفد السوري ، بان هذا المشروع خطير ولا يستطيع البت فيه بمفرده ، بل يجب عليه العودة لاستشارة القيادة في الجزائر .

١١ ـ دراسات عربية ، العدد المذكور ، ص ٥٥ .

لانه يعتمد على تقديرات مختلفة للامور ، اما ان تتهمها بأنها « لا تفكر حتى مجرد التفكير فيها» فذلك ما يخرج عن حدود قدرتك البشرية يا زميلي .

وفي الصفحتين ٥٨ ـ ٥٩ يقول : «اننا غالبا ما ننسى ان الوحدة هي القضية المركزية للثورة العربية . واذا كانت القضايا التالية لها في الاهمية وبعض الشؤون الصغيرة لم تجد لها حلا لا في مؤتمرات القمة ولا في المؤتمرات الضيقة للاقطار «المتحررة». فكيف يمكن ان تصل الطيبة باحدنا حدا يتصور معه ان القضاء على التجزئة التي هي القاعدة المادية للتخلف والاستعمار الجديد يمكن ان يحصل بقرار سخي من ملوك ورؤساء بعضهم مرتبـــط بالاستعمار الجديد ؟»

اما في ص ٦٨ فيقول : «والوحدة العربية ـ اكثر بكثير من الاشتراكية المطبقة في خمسة اقطار ـ هي الهدف الذي يصوب اليه الاستعمار ودماه العربية كل ما في حقيبتهم من سهام» .

ان لهجة التهكم «الاشتراكية المطبقة في خمسة اقطار» تكشف عن انفعال وحكم قبلي باسقاط القيادات البورجوازية الصغيـرة والاستعاضة عنها بتنظيم اسماه (الوحدوي الجديد) كما سنرى. فالتهكم الذي لجا اليه اكثر من مرة ، يجعله خارج دائرة الرؤية الهادئة التي تكشف عن الاختلافات الدرجية وحتى النوعية بين شرائح البورجوازية الصغيرة ، بل وتدله على امكانات التطـور الراهنة .

والنقاط السابقة تؤكد ما يلي :

١ ـ ان الزميل (الاخضر) وقع في تناقض واضح ، كـــان يضغط على ذهنه لدرجة انه يكتب بتشوش ، وغموض احيانا ، عندما يتطرق لدور البورجوازية الصغيرة وتحديد طبيعتها . فهو، كما يلوح مما تقدم ، مقتنع باسقاط ، ليس البورجوازية الوسطى فحسب ، بل والبورجوازية الصغيرة بمختلف شرائحها دون تمييز

بين أجزائها . واذا كان قد دعا للتعاون معها ، فان ذلك تناقض آخر ، اذ كيف يمكن ان ندعو لتجاوز وإنهاء قوة سياسية ، ثم نطلب التعاون معها ، او ننتظر منها نهوضا بمهام الثورة الراهنة؟

٢ ـ وهذا الموقف ناجم عن فقدانه الارضية السياسية المتماسكة ، اذ لا يكفي ان نمتلك منهجا علميا ، بل يجب ، اساسا، الارتباط بتنظيم سياسي له جذوره النضالية والتاريخية والجماهيرية «النظيفة» التي تكسبه استقرارا نسبيا يجعله قادرا على تحديد طبيعة القوى والعناصر الاخرى دون تردد او تذبذب، ودون حاجة لهذا التهرب والتخوف من تحديد طبيعة القوى بوضوح علمي متجرد .

ولا أعتقد ان كون الزميل (شيوعيا) قد انقذه من فقدان الارضية السياسية اذ ان الحزب الشيوعي الجزائري وقف موقفا غير مشرّف عند انطلاق الثورة الجزائرية (١٢) ، ولم تستطع الاحزاب الشيوعية في المغرب عموما ان تكتسب تلك الجذور النضالية والتاريخية التي تهيئها لممارسة عملية مسح وتقييم للقوى التاريخية . لقد بدا الزميل شاعرا ، حتى العظام ، بتفرده وعزلته ، وهذا ما تجلى في رفضه التنظيمات القائمة وبجرة قلم سريعة .

ان البورجوازية الصغيرة ، ليست طبقة المستقبل ، هذه مسلّمة لا اجد اشتراكيا علميا يتردد ازاءها . ولكن تقييم البورجوازية الصغيرة ، يستلزم تحديدا لدرجة تطورها وعلاقتها بالطبقات الاعلى والادنى منها ، كما يوجب ادراكا شاملا لمستوى تطور التناقضات الاجتماعية في المكان والزمان المعينين . وهذه

---

١٢ ـ انظر (الحزب الشيوعي الفرنسي وقضية الجزائر) تاليف الزميل الياس مرقص (دار الطليعة ـ ١٩٦٠) .

العملية تبدو حاسمة واساسية ، وبدونها يصبح موقفنا من البورجوازية الصغيرة ناقصا او ذاتيا .

البورجوازية الصغيرة وان كانت تجمعها سمات عامة مشتركة ، الا ان دورها واهليتها تختلف من قطر لآخر ، ومن مرحلة لاخرى . فاذا كانت البورجوازية الصغيرة تحتضر في تنظيم ما ، فانها لا زالت تمارس كامل دورها الخلاق في قطر وتنظيم آخر ، بينما هي قد سقطت في قطر ثالث وانحدرت لمستوى العصابات الفاشية ، الخ ... هذا الاختلاف يعود الى درجة تطور القوى الاجتماعية وتصديها لحل التناقضات القائمة، حيث تتحدد على ضوئها فاعلية وتقدمية اي من القوى الاجتماعية.

فما هو دور البورجوازية الصغيرة العربية حاليا ؟

قبل الاجابة على هذا السؤال ، ثمة ضرورة لابراز الصفة الاساسية التي تميز البورجوازية الصغيرة عن البورجوازية والعمال .

ان الخط الفاصل ، والعنصر الحاسم في الصراع الطبقي ، هو «الملكية» فحيثما وجدت طبقة مالكة وجدت طبقة محرومة . وهكذا فالبورجوازية تتميز بأنها تمتلك راس المال ، الثابت والمتداول ، وتمارس من خلالهما قهرا طبقيا ضد الطبقة العاملة التي لا تمتلك ولا تتمتع بالحرية . وهذه الملكية التي تتمتع بها البورجوازية ، تخلق في اوساطها انماطا سلوكية وايديولوجية خاصة بها طابعها العام تقديس الملكية والمحافظة على الاوضاع القائمة بكل ما تحمله من تناقضات وظلم .

وبالمقابل ، تبدأ الطبقة العاملة ، تأسيسا على واقعها القاسي والشاذ ، بالتميز والتركز ، وشيئا فشيئا تبرز صفاتها الاجتماعية والايديولوجية مكثفة في رفض كامل للملكية الفردية، وتطلع كامل ، لملكية جماعية ينتهي عندها الاضطهاد والاستغلال. فالطبقة العاملة تقدمية وثورية ، لانها ترفض الجمود ، والتماثل في الاوضاع وتناضل من اجل الانقلاب الجذري المنشود ، وهي

علمية لانها وصلت الى امتلاك منهج علمي يحدد منشأ الظلم والاستغلال في الملكية الفردية .

الطبقة البورجوازية تؤمن وتقدس الملكية ، والطبقة العاملة ترفضها بحزم ، وهذا هو التناقض الجوهري بينهما .

البورجوازية الصغيرة ، فئة اجتماعية تقع بين المطرقة والسندان ، فلا هي مالكة تماما ولا هي معدمة تماما . ان وظيفتها الهامشية ، انتاجيا ، وتكونها الاجتماعي ، هما الاساس في هذا الوضع الشاذ . لقد نشأت كنتاج لحاجات البورجوازية الكبرى والوسطى لكوادر فنية وكتابية تقوم بانجاز معاملاتها وتدير بعض شؤونها التفصيلية . وهذه النشأة الهامشية ، مع تمتعها بامتيازات مادية معينة ، قد أوجدا لها مناخا ملائما للاطلاع والتعلم ، ومن ثمة ، الاحساس بالاضطهاد الذي تتعرض له على يد البورجوازية الكبرى والوسطى ، وكونها هامشية وذات وظيفة تفصيلية . ان ادراكها العميق لجهل وتخلف البورجوازية الكبرى من جهة وطبقتي العمال والفلاحين من جهة اخرى ، قد ولد لديها طموحا ذاتيا للاطاحة بالبورجوازية والحلول محلها ، عبر قيادتها للعمال والفلاحين . لقد كان دافعها الاساسي ، التوفيق بين تطلعها للملكية وادراكها الاعمق ، لخطورة تجاهل العمال والفلاحين وضرورة مراعاة مصالحهما الاساسية . لذلك، وبعد خبرة سنين، نجحت في طرح سماتها الايديولوجية العامة التي تميزت بواسطتها ، مرة واحدة ، عن الطبقة العاملة والفلاحين ، وعن البورجوازية .

فلكي تكسب الشغيلة (١٣) «العمال والفلاحين وبقية

---

١٣ ـ استعمل الزميل الاخضر مصطلح (الشغيلة) مشيرا به الى الطبقة العاملة ، والحال انه يشير الى العمال والفلاحين وسائر الكادحين ، كما يتضح ذلك من مطالعة التراث الماركسي .

الكادحين» الى جانبها ، طرحت نفسها كفئة اجتماعية تدرج ضمن اهدافها السياسية والاقتصادية ، بناء قطاع عام وانجاز اصلاح زراعي ومهام قومية اخرى . ان خبرتهـا في جهاز الدولـة البورجوازي ، قد علمتها ان الملكية الفردية ، عاجزة عن انجاز الكثير من مهام التصنيع والاصلاح الزراعي ، فكان البديل ، هو قطاع عام تسود فيه الملكية الجماعية حيث تعجز المبادرات الفردية عن ذلك .

ولكنها الى جانب ذلك ، اكدت «ان الملكية الضيقة ضرورة انسانية ، ما دام في الانسان ميل «طبيعي» للتملك ، الـذي بواسطته يتمكن من قهر الطبيعة وتفجير امكاناته الذاتية ..» اي انها تشترط ، ابتداء ، لكل نشاط وتحرر انساني ، تمتعا فرديا بملكية محدودة ، ليس في الاستهلاكيات ، بل تتعداها الى عمليات الانتاج المتوسط والكبير احيانا !

وهكذا وجد الاساس الوسطي لايديولوجيا البورجوازيـة الصغيرة : انها ترفض الملكية الفردية المطلقة ، ولكنها ترفـض وبنفس الشدة ، الغاء الملكية الفردية المحدودة . فهي تناضـل ضمن آفاق تقدمية عندما تدخـل في تناقض عدائي مـع البورجوازية ، الى ان تسقط الا انها تتحول ، تدريجيا ، الى قوة محافظة ورجعية عندما تصل السلطة وفي مراحل شيخوختها ؛ اي عند نضوج العمال والفلاحين سياسيا وإيديولوجياً .

في بعض الاقطار العربية بعد نقض الاستعمار التقليـدي وطرده ، وبعد اسقاط حلف الاقطاع ـ البورجوازية ؛ تلـوح البورجوازية الصغيرة في أدوار مختلفة ، فهي تدخل في تحالف مع البورجوازية الوسطى والعمال والفلاحين سمي بتحالف (قوى الشعب العاملة) في ج.ع.م. لان طبيعة الظروف الاجتماعية ، قد مهدت المناخ الملائم لهذا التحالف المضطرب المتعثر .

بديهي ان «الاتحاد الاشتراكي» جبهة وليس حزبا ، جبهة لا

تضم احزابا منظمة تمتلك تقاليد ثورية عريقة تجعلها محتفظة باستقلالها وايديولوجيتها ، بل تضم طبقات اجتماعية بكل ما تحمله من تناقضات عفوية وتلقائية . وهذا بالتأكيد ، ينعكس على مواقف (الاتحاد) ومسيرته . لان العامل الذي يناضل من اجل مصالحه الطبقية غير الراسمالي (الوطني) المحتفظ بكامل اتجاهاته ونزوعه . هذا (الاتحاد) يجعل من البورجوازية الصغيرة وسيطا بين الطبقات ، محكما يمنع (تعسف) طبقة على اخرى ، ويرفض «استبدال ديكتاتورية راس المال بديكتاتورية البروليتاريا» (١٤) .

ان تخلف التنظيمات السياسية العمالية والراسمالية ، على الصعيدين العددي والنوعي ، وتطور «الصغيرة» (١٥) وعدم دخولها في صراع «حاد» مع العمال والفلاحين من جهة، والوسطى من جهة اخرى ، والدور الثوري والوطني الرائع الذي لعبته في ازمة السويس ، كل ذلك قد دفعها الى سدة القيادة بلا منافس في ج.ع.م. وجعل جميع الطبقات «العمال والفلاحين والوسطى» تسير خلف القيادة الناصرية في «تحالف قوى الشعب العاملة» . فقيادة الصغيرة للثورة العميقة في ج.ع.م. وتصديها لانجاز المهام الديمقراطية القومية التي عجزت عن انجازها الكبرى ، يعود اساسا الى عدم وجود قوى طبقية اخرى مهياة فعلا وتستطيع تجاوز القيادة الناصرية سياسيا .

بل ما زالت ، حتى الان ، الحلقات الماركسية في ج.ع.م. لا تجد نفسها الا في مواقع تبريرية ، شبه مطلقة ، لمسار الحركة الناصرية داخلها وخارجها ، ففقدت بذلك الطابع الثوري والنقدي

---

١٤ ــ انظر : الميثاق الوطني للجمهورية العربية المتحدة .

١٥ ــ سنستعمل تعبير الصغيرة للدلالة على البورجوازية الصغيرة، والوسطى للدلالة على البورجوازية الوسطى ، والكبرى للدلالة على البورجوازية الكبرى .

المستقل للماركسية . ان القيادة الناصرية، تتمتع بقدرة لا تمتلكها اي من التنظيمات التقدمية الاخرى داخل ج.ع.م. وهذه القدرة هي نفسها التي جعلت الناصرية في هذه المرحلة ، ولمراحل قادمة ينبغي ان تطول ، تتصدى لانجاز مهام الثورة القومية الديموقراطية بلا منافس يمكن ان يتجاوزها في ج.ع.م. .

اذن فاليسار العربي ، عند تصديه لموقفه من نظام عبد الناصر مطالب اولا بتحديد «امكانات» كل من القوى الاجتماعية في ج.ع.م. على ضوء ظروف كل قوة او تيار . فالقوة التي تستطيع ان تدفع بعجلة التطور الى الامام ، وعلى نحو أعمق من غيرها هي التي ينبغي ان تدعم وتخلق معها امتن صور التحالف وأرسخها .

والذي يلوح الان ، ان القيادة الناصرية هي التيار القادر على قيادة الثورة ودفعها الى الامام ، وبدون قيادة عبد الناصر ، لن ينتقل زمام الامور الا الى عناصر رجعية او مستعدة للرضوخ والتحالف مع الرجعية في داخل ج.ع.م.

اما الماركسيون المصريون ، فما زالوا مجرد (مثقفين) يفتقدون روح الاستقلال السياسي ، والقدرة على خلق تيار جماهيري مواز لتيار عبد الناصر .

هاتان الحقيقتان ؛ ثقة الجماهير بعبد الناصر ، وجنينية الحلقات الماركسية ، تجعل شعار اسقاط (الصغيرة) في ج.ع.م. ضربا من النزوع الذاتي والحول السياسي .

وعند التصدي لحزب البعث العربي الاشتراكي وتقييمه ، ينبغي الابتعاد عن المغامرة باطلاق احكام تعميمية ، لاننا ازاء ظاهرة (فريدة) لا بد من دراستها قبل الحكم عليها . ان حزب البعث العربي الاشتراكي ، قد استطاع ، خلال ربع قرن ، ان يجسد الاهداف العامة للثورة العربية ، ولو بشيء من الغموض الناجم عن التركيب الاجتماعي السابق للحزب ، وما ارتباط التاريخ العربي المعاصر ، باسم الحزب ، الا تأكيدا للدور الخطير الذي

يلعبه الحزب .

فماذا يمثل حزب البعث العربي الاشتراكي اجتماعيا ؟

هل هو التنظيم السياسي للصغيرة ؟ ام انه التنظيم السياسي لتحالف العمال والفلاحين ؟ وقبل الخوض في الموضوع ، اجد ضرورة عظمى في تثبيت بعض الملاحظات :

الاولى : ان التنظيمات التي ندعوها عمالية او يسارية ، لا تمثل في هيكلها التنظيمي سوى اجزاء معينة من (الصغيرة) ، تقود مجموعات ضخمة او ضئيلة ، من العمال والفلاحين .

الثانية : ان هذه الظاهرة تعود الى عاملين :

١ ـ تخلف الطبقة العاملة وطبقة الفلاحين السياسي ، الناجم عن ارتباك وتخلف وسائل الانتاج .

٢ ـ تطور (الصغيرة) واتساعها بعد تكونها في مكاتب ادارة الدولة الجديدة التي انشاها المحتل .

فهي ، اذن ، ظاهرة موضوعية لا سبيل الى تجاهلها او القفز من فوقها .

الثالثة : ان ما يميز شرائح (الصغيرة) عن بعضها ، هو التزامها الايديولوجي العملي والسياسي . فايديولوجيا (الصغيرة) ايديولوجيا وسطية ، تعمل على مزاوجة قطبين متنافرين ومتضادين (الملكية العامة والخاصة) ، فهي لذلك مسحوقة تحت وطأة جذب هذين القطبين المتنافرين واللذين لا يمكنهما التعايش الا لفترة محدودة .

ان الشريحة الدنيا من (الصغيرة) تكون مهيأة ، في اقطار العالم الثالث ، لاكتشاف استحالة مزاوجة الملكية العامة بالملكية الخاصة ، نظرا للجذور الاجتماعية التي تربطها بالطبقتين اللتين انحدرت منهما منذ اعوام قليلة ، اي العمال والفلاحين ، وتحول ميزان القوى العالمي لصالح ايديولوجيا الطبقة العاملة . واذا ما استطاعت التخلص من «جوهر» ايديولوجيا «الصغيرة» والتزمت

بإيديولوجيا الطبقة العاملة ، فانها تكون قد حققت انسلاخا ثوريا، يقودها الى الاندماج التدريجي بالطبقتين الكادحتين . وهذا بالضبط ما حصل بالنسبة للاحزاب الشيوعية العربية ، واخيرا لحزب البعث العربي الاشتراكي . وعند تقييم هذه الشريحة لا يجوز اعتبارها كفئة «صغيرة» ما دامت ملتزمة بإيديولوجيا الطبقة العاملة ، ومندمجة في طبقتي العمال والفلاحين ، على ان تمارس ازاءها سياسة نقد مستمر ومتابعة جذرية لسلوكها ومواقفها والتي قد تتأثر بماضيها الوسطي .

صحيح ان الانسلاخ عملية «فردية» وليست «طبقية» ، وصحيح ايضا ان ثمة مخاطر عديدة تكمن خلف وجود قيادات ذات منبت «صغير» على راس حركات عمالية ـ فلاحية الا ان الاصح، ان اجزاء معينة من «الصغيرة» قد مارست دورا ثوريا في مراحل سابقة لم يتسن لاي من البورجوازيات الصغيرة في اوربا ان تلعبه ، كما ان تخلف العمال والفلاحين يجعل المسألة مسألة اضطرار وليس اختيار ، اضطرار للقبول بقيادات ذات منابت طبقية وسطية يستمر للفترة التي تنضج فيها طلائع العمال والفلاحين سياسيا . ثم تبرز موضوعية الانسلاخ واضحة وواسعة، كما ترسخ حلف العمال والفلاحين وانتشرت ايديولوجيا الطبقة العاملة . والتجربة الكوبية ، التي يدعونا الزميل لاعتبارها رائدة ، وهذا موضوع لا نقاش حوله بالتأكيد ، تدلل على امكانية تحول «شرائح» دنيا من الصغيرة الى معسكر الطبقة العاملة وإيديولوجيتها . فكاسترو لم يكن في بداية نضاله السياسي مؤمنا بإيديولوجيا الطبقة العاملة ، لكنه ، ومن خلال المعارك الثورية ، اكتشف ان لا طريق ايديولوجي سوى طريق الاشتراكية العلمية .

البورجوازية «الصغيرة» في اوربا ، كانت ولا تزال ، تلعب دورا هامشيا ، وفي افضل الاحوال تتمرد بتطرف نهلستي لا

حدود اجتماعية واضحة له (١٦) ، وهي ايضا قليلـــة العدد ، قياسا بضخامة الطبقة العاملة . ان ذلك الوضع مرتبط بالتركز الذي تتجه اليه الراسمالية الاحتكاريـــة ، وبخلقها لجيـــوش بروليتارية واقتياتها ، اي الامبرياليـــــة ، علـى حساب فئات اجتماعية وسطية . اما في آسيا وافريقيا وامريكـــا اللاتينية ، فتضخم جهاز الدولة وحاجته للعناصر الفنية والكتابية ؛ وتخلف الصناعة وبدائيتها ، كل ذلك جعل «الصغيرة» عدديـــــا توازي الطبقة العاملة . فظاهرة الانسلاخ ، هنا ، وان كانت «فردية» ، الا ان انسلاخ «فئة» دنيا من الصغيرة والتزامها بإيديولوجيـــا الطبقة العاملة ، واعتبار حلف العمال والفلاحين اساسا اجتماعيا لعملية النقض الطبقي ، امر محتمل ، وممكن ، بالرغم مــــن الصعوبات التي تعترض انجاز هذه العملية ، والانشقاقـــات التنظيمية التي قد تحدث .

اما الشرائح العليا من «الصغيرة» والتي تلامس وتتصـــل بالاجزاء الوسطية والعليا من البورجوازية ، فانها تبقى متأرجحة لفترة ، الى ان تستقر في تحالفها مع البورجوازيـــة والاقطاع ، فتسقط في مواقع فاشية اجرامية .

عند نشوء الحزب ، طرح الاهداف الثلاثة (١٧) كاهـــداف رئيسية تجسد منطلقاته السياسية ، وبالرغم من اهمية هـــذه الاهداف التي كل واحد منها له أوجـــه متعددة وممارســـات متخصصة ، لكن بحث موضوع الاشتراكية يمكن ان يحدد لنـــا هويته الاجتماعية . وكيما نتجنب التعميم والاطلاق . لا بد من

---

١٦ ــ الحركة الثورية للطلبة الاوروبيين التي اجتاحت ، ولا زالت ، تجتاح اوربا تتميز بعدم وضوحها وتناقضها وانفعاليتها ، وطابعها الاني .

١٧ ــ «الوحدة والحرية والاشتراكية» .

التمييز بين مرحلتين في تاريخ حزب البعث العربي الاشتراكي :

أ ـ الفترة الاولى : وتمتد منذ نشوئه في الاربعينات ، وحتى تشرين اول عام ١٩٦٣ . وفي هذه المرحلة ، كانت اشتراكيــة الحزب تلخص بالمنطلقين التاليين :

١ ـ الحزب ، يؤمن بالملكية الجماعية لوسائل الانتاج كوسيلة لمنع استغلال الانسان للانسان .

٢ ـ والحزب يؤمن ، في الوقت ذاته ، بالملكية الفردية «في حدود المصلحة القومية العليا» ، لتكون هذه الملكية حافزا للابداع والتجويد ، وتأكيدا لحرية الفرد وحقه «في تفجير امكاناته الدفينة » .

هذان المنطلقان طبعا سحنة الحزب الايديولوجية بميســم تقدمي وثوري لفترات طويلة امتدت لحين استلام الحزب للسلطة في قطرين .

ب ـ الفترة الثانية : وتبدأ في تشريــن اول عام ١٩٦٣ ، وتستمر حتى هذه اللحظات . وفي هذه الفترة حصل تحــول اساسي «نوعي» يعتبر قفزة تاريخية ، وسابقة لا مثيل لها في تاريخ الثورة العالمية ، باستثناء السابقة الكوبية ، اذ لقد انعقد المؤتمر القومي السادس ، في تشرين اول ١٩٦٣ ، بعد التخبط ازاء قضايا التحويل الاجتماعي التي واجهت الحزب بعد استلامه السلطة في العراق وسوريا ووصوله الى باب استلامها في اقطار اخرى . لقد كشفت السلطة للحزب ، عدم كفاية العموميــات وسطيتها ، ومما أرهق الحزب وساعد على نضوجه ذاك ، هو المشاكل السياسية المعقدة التي واجهته ، وتداخل التناقضــات الاجتماعية وطابعها الاستثنائي الفريد . لذلك خرج المؤتمــر بالقرارين التاليين (١٨) :

---

١٨ ـ بالاضافة لقرارات سياسية وعقائدية عديدة لا مجال لتعدادها، الا ان =

الاول : «ان الاعتراف بالملكية الفردية ، بشكلها المطلق ؛ ورغم تضييق نطاقها ، هـو ضرب من المفهـــوم البورجوازي الصغير (١٩) . لذا فان «التحويل الاشتراكي للمجتمع يعني ـ من حيث المبدأ ـ تحويل ملكية وسائل الانتاج الخاصة الى ملكية عامة للشعب بأسره ، ويلغي الحاجة للوسيط الراسمالي بصورة نهائية ويجعل دخل الفرد يرتبط مباشرة بعمله وكفاءته ويصهر سائــر الطبقات في بوتقة واحدة ، وهو اخيرا يلغي اقتصاد الربح ويخلق اقتصادا يرتكز على الحاجات » (٢٠) .

الثاني : «السمة الثانية لايديولوجيا حزبنا هي الثورية ، لان منطلق التفكير القومي الاشتراكي العلمي في التحليل الاجتماعــي والاقتصادي هو منطق جدلي ينطلق من اقرار وجود تناقض في المجتمع القومي ووجود صراع بين الطبقات ، يتميز بنزوعه الى تحقيق هدفين في آن واحد : الوحدة القوميـــة والقضاء علــى الاستغلال» (٢١) .

ان رفض موضوعة الملكية الفردية ، باقرار ان الملكية العامة، هي الشكل الوحيد من اشكال الملكية ، واقرار المنطق الجدلي ، يعني ان ثمة قفزة نوعية قد حصلت . سابقا اكدنا ان ما يميـــز ايديولوجيا «الصغيرة» انها الى جانب دعوتها لقيام قطاع عام ، تناضل من اجل ملكية فردية ضيقة النطاق لا تقتصر على الحاجات

= ابرزها ، سياسيا ، نقد اخطاء الحزب ومطالبته بتصحيحها ، واقرار مسالة الوحدة بين سوريا والعراق في حالة رفض العربية المتحدة الانضمام اليها . وهذه القرارات مجتمعة ادت الى الردة التشرينية الرجعية الفاشية في العراق.

١٩ ـ المنطلقات النظرية التي اقرها المؤتمر ص ٧٧ .

٢٠ ـ المنطلقات : ص ٨٠ .

٢١ ـ المنطلقات ص ٢٤ .

الاستهلاكية ، بل تتعداها الى قطاع خاص يكشف عن «امكانات الفرد وحريته ونزوعه الطبيعي الى التملك» .

فاذا ما التزم حزب سياسي بموضوعة الملكية العامة ورفض التملك الفردي ، ثم اعتبر المنطق الجدلي اداة تحليله وبحثه للظواهر عموما ، فهل يجوز اعتباره بورجوازيا صغيرا ؟ صحيح ان ايديولوجيا الاشتراكية العلمية ليست مجرد ملكية عامة ومنطق جدلي ، فهي تراث ثوري وغني ومجرب ، لا يكفي ان نقول بصدده ، ملكية عامة ومنطقا جدليا ، ولكن الاصح ، هو ان اقرار الملكية العامة والمنطق الجدلي ، خطوتان حاسمتان ، تقودان حتما ، في حالة وجود عناصر مؤثرة ملتزمة ، الى ايديولوجيا الاشتراكية العلمية ، عبر ممارسات متنوعة وتجارب يومية يمر بها ذلك الحزب . ان ديكتاتورية البروليتاريا ، وهي ما يميز الحزب الاشتراكي العلمي «الحقيقي» ، ليست ، في النهاية ، الا نتيجة الايمان بالملكية العامة والمنطق الجدلي . فلولا وجود تناقض في المجتمع منشاه الملكية الفردية ، لما ظهرت الحاجة لملكية عامة، ولولا مقاومة البورجوازيين ورواسب قرون حكمهم لما ظهرت الحاجة لديكتاتورية البروليتاريا .

هذه بديهيات ، وأوليات ، لا يجوز مناقشتها . الذي يمكن ان يناقش هو امكانات الحزب المعني ، والتي قد تسرع او تؤخر في تطوره . وكذلك ، وهذا اساسي ، البحث في الشكل القومي «الخاص» لديكتاتورية البروليتاريا (٢٢) او اي اسم اتخذته .

المؤتمر القومي السادس للحزب ، «نقطة» تحول في طريق

---

٢٢ ـ ديكتاتورية البروليتاريا تعني حجب الحرية عن الطبقات الرجعية ، واطلاقها للجماهير الكادحة ، عبر طلائع اكثر الطبقات فقرا وثورية وممارستها احزم الاساليب تجاه الاعداء الطبقيين .

طويل ، ينقل الحزب الى مشارف وضع ثوري وعلمي جديد ينسجم مع درجة تطوره وروح العصر ، وينوجد عبر تربية وعلاقات جديدة لا تخلق بدعوات مرتجلة او رغبات ذاتية ، وانما بالنضال والممارسة اليومية ، وتطوير العلاقات والتثقيف الدائم بالمنطلقات الاساسية لايديولوجيا الطبقة العاملة وتراثها الانساني. وعبر ذلك فقط يمكن تصفية (بعض) المفاهيم الوسطية والغامضة التي ما زالت عالقة في اذيال الحزب .

ولم يكتف المؤتمر القومي السادس بذلك ، بل اقر ايضا المسألتين التاليتين :

الاولى : ان الاشتراكية واحدة في العالم ، وليس ثمة اشتراكية (عربية) ، بل هناك اشتراكية علمية فحسب . والاختلاف الذي يوجد ، هو الاختلاف في طرق التطبيق ، في مراعاة الخصائص القومية المحلية للشعوب . لذلك اكد ان ثمة طريقا عربيا للاشتراكية العلمية .

الثانية : اكد ان «السلطة الجديدة التي سوف تبني الاشتراكية ، هي السلطة الممثلة للعمال والفلاحين والمثقفين الثوريين والبورجوازية الصغيرة والتجارية والصناعية والخدمات» الا ان الثورة الاشتراكية ، لكي تسير بحزم الى آخر الشوط ، ولكي تبني مجتمعا قوميا اشتراكيا سليما ، لا بد ان تعتمد ، اساسا ، على الجماهير الكادحة (٢٣) . وعلى الصعيد السياسي حصل ما يلي :

١ ـ «لقد وضع حزب البعث العربي الاشتراكي مسألة النضال ضد الاستعمار ضمن اطارها الدولي والانساني ، واعتبر المعسكر الاشتراكي قوة ايجابية فعالة في النضال ضد الاستعمار،

---

٢٣ ـ المنطلقات ، ص ٨٢ ـ ٨٣ .

ولم تستطع تبعية الشيوعيين المحليين (٢٤) السياسية والنظرية وانغلاقهم المذهبي وتجمدهم الفكري وعداؤهم للاتجاه القومي العربي والوحدة العربية ، والاخطاء المبدئية والتكتيكية التي وقع، ويقع ، فيها الاتحاد السوفييتي كثيرا من الاحيان ، لم تستطع ان تحجب عن حزب البعث العربي الاشتراكي التقاءه العميق مع المنطلقات الاساسية المبدئية لسياسة المعسكر الاشتراكي» (٢٥) .

ثم جاء المؤتمر القومي الثامن ، ليضع اللمسات الضرورية الواضحة ، والستراتيجية الثورية المتكاملة للحزب سياسيا ، فرفض بحزم المساواة بين اللصوص (الامبرياليين) والثوار ، واكد انه جزء من الثورة والثوار في العالم ، ولا يمكن ان يتخذ موقف المتفرج ازاء الصراع الدولي . وهذه خطوة ثانية كرست الخطوة العقائدية الاولى في المؤتمر القومي السادس .

٢ ــ ولقد شن الحزب حربا عنيفة لا هوادة فيها ، اقضت مضاجع الامبريالية وشركاتها الاحتكارية ، عندما طرح شعاراته الاساسية التالية وحوّلها الى قوة جماهيرية تتحرك على امتداد الارض العربية :

أ ــ الكفاح المسلح وحرب التحرير الشعبية الطريقان الوحيدان للتحرير وكنس الرجعية المحلية .

ب ــ حلف العمال والفلاحين اساس القوة الاجتماعية التي تتصدى لنقض الطبقات الرجعية وتحقيق ثورة الحزب القومية .

جـ ــ بترول العرب للعرب .

---

٢٤ ــ ينبغي الانتباه الى ان المنطلقات قد كتبت في فترة احتدام الصراع بين البعث والحزب الشيوعي العراقي .

٢٥ ــ المنطلقات ، ص ٤٥ .

د ـ النظم الرجعية هي التوام الطبيعي لاسرائيل .
هـ ـ الثورة العربية جزء لا ينفصل من الثورة العالمية ضد الامبريالية والشوفينية .
و ـ الوحدة العربية هي وحدة الطبقات الكادحة وليست وحدة الطبقات الرجعية . واداة الوحدة التنظيمات السياسية الشعبية الممثلة لاكثر الطبقات فقرا وثورية .
ز ـ تحالف الاحزاب والمنظمات الشعبية التقدمية ، بديل ثوري لمؤتمرات القمة .
ح ـ الجبهة التقدمية ، جبهة النظم والاحزاب التقدمية ، خطوة اولى في اي تحرك معاد لاسرائيل والرجعية العالمية .
ط ـ اسرائيل قاعدة امامية للامبريالية العالمية ، فالمعركة معها ، جزء لا يتجزأ من معارك الشعوب ضد الراسمالية الاحتكارية. فالرصاصات التي يوجهها المقاتل الفلسطيني تتجه نحو نفس هدف المناضل الفيتنامي .
ي ـ العمل الفدائي التجسيد العملي والاساسي ، في المرحلة الراهنة ، لعملية التحرير ، فدعمه وتطويره ، والقيام به ، مهمة قومية ـ طبقية في آن واحد .
ك ـ تصفية البنى الاجتماعية المتخلفة في داخل الاقطار العربية، الاساس الموضوعي لايجاد قاعدة بشرية واقتصادية قادرة على خوض حرب قاسية طويلة دون خوف من ظهور حصان طروادة .

هذه هي المنطلقات السياسية «الاساسية» للحزب ، وهي تبدو ، في جوهرها ، اتجاها ثوريا يصب في مجرى واحد مع مختلف اتجاهات الثورة العالمية ، وبالتحديد ، مع الاتجاه «الجيفاراوي» . ان هذا الاتجاه يرصد المسائل من وجهة نظر جماهيرية ، من وجهة نظر مناضلين يخوضون الكفاح المسلح «فعلا» ويصنعون الثورة يوميا بسلوكهم وعلاقاتهم .

وكانت هذه المنطلقات ، والاهم كان تطبيق ما يتعلق بالحزب منها محرضا اولا لسلسلةالتآمر الرجعي ـ الامبريالي ـ الصهيوني على الحزب .

ان حزبا ينتهج سياسة ثورية ومبدئية ، خارجيا وسياسيا لا بد ان يكون مستقرا على مواقع داخلية ثورية ومبدئية ايضا . فما هي «اهم» ملامح سياسة الحزب الداخلية ، وتصوره لنظامه السياسي ؟

١ ـ هيمنة القطاع العام في الصناعة وتحويل القطاع الخاص الى شكل ثانوي من اشكال الملكية ، انتقالي ومرحلي .
٢ ـ اعتماد الملكيات الجماعية والاسلوب التعاوني في الزراعة .
٣ ـ اعتماد المنظمات الشعبية وتجسيد مبدأ الديمقراطية الشعبية، على صعيد علاقة الحزب بالجماهير ، الإتحاد العام للعمال ، الاتحاد العام للفلاحين ، الاتحاد النسائي ، الاتحاد الوطني للطلبة ، اتحاد الشبيبة ، الخ . ان الانتخاب والتمثيل الحر يسود هذه المنظمات .
٤ ـ سحق فلول الرجعية اقتصاديا وسياسيا ، والاستمرار في تصفيتها اجتماعيا .
٥ ـ تشجيع العمل المجاني اثناء العطل والفراغات تنمية للخلق الاشتراكي وتصفية للخلق التجاري السوقي . فاقتصاد الحرب والتعبئة يحتاج لاقصى الطاقات .
٦ ـ تشجيع التنافس الانتاجي ، لا على اساس تنمية الغرائز البدائية او العودة الى الوراء نحو اعادة فاعلية «قانون القيمة» ، بل لزيادة الانتاج وتطويره ضمن خطة شاملة ، وتوعية خلقية اشتراكية مستمرة .

بعد هذا الاستعراض ، ماذا يجب ان نقول عن حزب البعث العربي الاشتراكي ؟ هل هو حزب بورجوازي صغير ؟ فاذا كان جوابنا (نعم) نكون ذاتيين وغير قادرين على التمييز بين الشرائح

والنظم الاجتماعية ، ومغمضين اعيننا عمدا عما يجري في العالم من حولنا من تغير وانتقال .

واذا قلنا انه «حزب اشتراكي علمي وعلى نحو مطلق وتام» نكون اكثر ذاتية واحتقارا للحزب ذاته ، لان الانتقال عملية صعبة ومعقدة ، وتستغرق مراحل طويلة ، وتجارب قد تكون مؤلمة ، ينوجد عبرها الوعي المطلوب في الحزب الاشتراكي العلمي . وكل تجاهل للترسبات والامراض الاجتماعية لن يؤدي الا الى اكتساب هذه الامراض وجودا شرعيا ومناعة قوية .

لقد اجتاز الحزب في المؤتمر السادس القومي مصاعب كبيرة وسار ، وهو يحث الخطى ، لانجاز مهمتين رئيسيتين :

الاولى : تصفية (بقايا) الغموض الايديولوجي في بعض مواقع الحزب ، ومعالجة ظواهر الامراض القديمة ، عبر الممارسة اليومية .

الثانية : بلورة التزام الحزب بايديولوجيا الاشتراكية العلمية من خلال مؤتمراته الحزبية القومية الدورية ، ذات الطابع الديمقراطي والثوري .

ان عملية الانتقال والتطور ، كما قلنا ، ليست سهلة تتحدد بيوم او بسنة ، وانما ينبغي ، كيما تكون طبيعية وفاعلة ودائمة، ان تستكمل كافة مقوماتها ، من تصفية عملية ومتدرجة لكل السلبيات ، الى بناء ارضية اجتماعية مستقرة وذات طابع ثقافي جديد يواكب العلم . قد تكون عملية الانتقال السريع الفوري ، عملية سهلة ، ولكن سهولتها مرتبطة بقلة وضآلة حجم المنظمة او الحركة . اما ان تكون منظمة جماهيرية عريقة وذات حجم هائل فذلك ما يجعل تطورها مشبوها كلما زايد وأرغى وأزبد البعض. لقد شبه احد المناضلين البعثيين في العراق الفرق بين التطرف اليميني واليساري بالحلقة التي لا يعرف من اين تبدأ واين تنتهي؟ فاليساري الذي يتطرف ، يجد نفسه ، دون ان يعي ، ملتقيا مع

اقصى اليمين والعكس صحيح ايضا .

فدور «الصغيرة» هنا قد اختلف عن دورها في ج٠ع٠م٠ وهذا الاختلاف خطير ويحمل دلالة كبرى لا ينبغي اهمالها .

ماذا يعني ، في النهاية ، هذا التحليـــــل ؟ هل يعني ان البورجوازية الصغيرة ، لا ينبغي ادراجها ضمن حكم واحد نهائي؟ وانه ينبغي تحديد شرائحها ودرجة تطور كل شريحة ، وعلاقتهـا بالطبقات الادنى والاعلى منها ؟ والجواب : نعم ، لا بد من تحديد سيماء «الصغيرة» كل شريحة على حدة . ولئن تجاوز الحـزب «الصغيرة» الا انه يدرك انها ما زالت تمارس دورا ايجابيا وتقدميا في المجتمع ، فالتحالف معها مسالة ستراتيجية ينتج عن اهمالها القصور والعجز عن فهم دور الفئات الاجتماعية ولكن مع التحالف ينبغي احتفاظ الحزب باستقلاله الايديولوجي والتنظيمي ، وان يمارس دورا ايجابيا في دفع «اجزاء» من الصغيرة لمواقف ثورية او اكثر ثورية ، وجعلها تدرك ، عبر التجربـــة ان تحالفهـــــا (الستراتيجي) مع العمال والفلاحين طريق خلاصها .

ب ـ **دور الادوات الثورية الراهنة** : النقطة الثانية ، وهي الاخطر ، هي نظرة الزميل الاخضر الى دور القوى والتنظيمـات التقدمية القائمة :

١ ـ لقد افترض الزميل ان الادوات الراهنة «حزب البعث العربي الاشتراكي ، الاحزاب الشيوعية العربية ، نظام عبـــــد الناصر ، وبعض القوى القطرية الاخرى» قد انتهت ولم تعد قادرة على انجاز مهام الثورة العربية في المرحلة الراهنة ، الديمقراطية القومية ، فهو يقول :

«الانظمة القائمة الان ، بمختلف هوياتها لم تحقق الوحدة ولا في ابسط وادنى مستوياتها وحدة العمل وبعضها ، حتى من الانظمة التي يقال عنها انها مهياة للوحدة ، لا تفكر حتى مجرد

التفكير فيها . فما العمل اذن ؟» (٢٦) .

٢ – ويجيب على هذا التساؤل بما يلي : «كما انه لا سبيل لبناء الاشتراكية بدون توفير اداتها : الحزب الطليعي ، فكذلك وبنفس الدرجة من الالحاح لا يمكن قيام وبالاخص صيانة دولة الوحدة العربية بدون ان تشكل سلفا اداتها التنظيمية التي تستطيع قطف الثمرة الناضجة في الابان . مثل هذا التنظيم الوحدوي الثوري على مستوى الوطن العربي والذي يتبنى الوحدة كإطار وشرط لتحقيق كامل وصحيح للاهداف الاستراتيجية الاخرى للثورة العربية لم يتوفر بعد ، ولكن في الامكان ، بل من الضروري العمل الجدي على انشائه» (٢٧) . – ص ٥٥ – .

ثم يتساءل «ولكن كيف ؟» ويجيب «في الاقطار العربية كلها تقريبا توجد تنظيمات سياسية او نويات تنظيمية وحدوية وتقدمية في المشرق وكذلك ، وان بدرجة وحدوية أقل عمقا في المغرب العربي ايضا . فلماذا لا يبادر تنظيم او اكثر بدعوتها لتداول الراي واستعراض متطلبات الموقف الراهن ، ثم ضبط موعد لعقد مؤتمر قومي يحضره ممثلون عنها جميعا تناقش فيه بكل عناية وبروح نقدية كل جوانب القضية وامكانيات العمل المشترك وحدوده بينها . ويضعون نتائج تحليلاتهم في ميثاق قومي يحدد بدقة مراحل واهداف الثورة العربية حسب أولوياتها ويرسم لها تكتيكا ملائما ومتماسكا لوضعها موضع التنفيذ . كما يتم انتخاب قيادة قومية من هذه التنظيمات تجتمع دوريا لمراقبة تنفيذ المهام ولمواجهة كل طارىء جديد في الموقف العربي والدولي بما يناسبه .. الخ» (٢٨) .

---

٢٦ – دراسات عربية ، العدد المذكور ، ص ٥٥ .

٢٧ – دراسات عربية ، العدد المذكور ، ص ٥٥ .

٢٨ – دراسات عربية ، العدد المذكور ، ص ٥٥ .

كذلك يقول: «ليس من الضروري ان تستجيب كل التشكيلات التقدمية في جميع الاقطار للدعوة منذ البداية . حسبنا ان نعرف ان الحزب الشيوعي الصيني الذي غيّر وجه التاريخ في شبه القارة الصينية شكله ٧٢ شخصا ، والثورة الكوبية الرائعة أشعل فتيلها ١٢ شخصا فقط (٢٩) ، والحركة الشيوعية التي قلبت علاقات القوى العالمية راسا على عقب خرجت من رأس رجلين هما ماركس وانجلز . سيكون مجديا حقا لو ان دولة عربية تقدمية تحتضن هذا التنظيم والدعوة اليه ، لان ذلك سيكون رافدا نفسيا يهيىء له اكثر اسباب النجاح فعالية نضالية» (٣٠) .

في مكان آخر يهاجم الزميل الوحدة العربية التي تتم دون مساهمة جماهيرية ، وبمباحثات بين رؤساء على الطاولات وخلف الكواليس ، ولكنني ارى انه يدعو لتنظيم لا يقوم من خلف الكواليس فحسب ، بل انه يرى الاشياء من خلف الكواليس ! في عصر الذرة ! هكذا ببساطة يجتمع بعض الطامحين الضائعين ، الذين لا يمتلكون جذورا نضالية وتنظيمية واضحة ، ليضعوا ميثاقا ، «يحدد بدقة» بدقة انتبهوا «مراحل واهداف الثورة» وكأن نضالات وتضحيات النويات الاولى للاحزاب ، تتشكل بمؤتمرات فوقية يحضرها اشخاص لم تعرفهم ساحة المعركة الدامية ، الا هامشيين ، هذا اذا كان ثمة وجود حقيقي لهم . ان ذلك يذكرني ويستحضر في ذهني صورة «الاتحاد الهاشمي» المقبور حيث ولد بعد جلسة طاولات سريعة ، كرد على ميلاد ج.ع.م.

---

٢٩ ـ لا ادري لماذا تجاهل هنا الزميل الثورة الجزائرية ؟ هل لا يعلم بعدد الذين اشعلوا فتيلها ؟ ام ماذا ؟

٣٠ ـ دراسات عربية ، العدد المذكور ، ص ٥٥ .

ان وجود تنظيم قومي شامل عملاق ، البعث ، قد حرض سابقا ، ويحرض الان ، وسيحرض في المستقبل ، لمحاولات محاكاة وتقليد لن يكتب لها النجاح ، ما دامت محاولات محصورة في اطار ما يطرحه البعث . وقد يكتب لها الحياة ، لو انها تجاوزت فعلا البعث . وحتى ذلك اصبح مستحيلا الان ، ما دام البعث يتجاوز ما يخلفه العلم والتجربة ركاما باليا ، ليلتزم بنتائج التجربة والنظرية العلمية .

المسائل التي طرحها الزميل خطيرة ، بل اخطر مما ينبغي ان يطرح في المرحلة الراهنة من عنصر (ماركسي) ! لان طرح هذه المسائل ، في المرحلة الراهنة ، مرتبط بعناصر معينة . ان اسقاط الحركات الثورية القائمة ، بجرة قلم ، عملية خطيرة ، وان كانت جرة قلم . لانها تكشف عن نزعة ذاتية مخربة لا تقتصر تأثيراتها عند حدود تعدد الحركات ، غير المبرر تاريخيا ، بل تمتد لنسف ما هو قائم منها .

وانني اتساءل ما هو البديل ؟ ان تدمر تنظيمات مضى على كل منها ما لا يقل عن عشرين عاما من التضحيات الكبرى ومئات الشهداء ، وآلاف الخبر والتضحيات وحصيلة رائعة من التراث المجيد والعلاقات التاريخية التي ضربت جذورها في الارض العربية ، ان تقوم بهذه المهمة ، فينبغي ان يكون مشروعك ، يا زميلي ، على قدر من النضوج ، ودعنا الان من الموضوعية العلمية، بحيث يكون بعيدا عن احلام الذين لا يمتلكون تجربة سياسية، من اولئك الذين لم ينزفوا دما وعرقا وتضحيات وهم يبنون حركات تاريخية ، فما عرفوا كيف تبنى ادوات الثورة والانقلاب الجذري؟ ولا عن مصالح من تعبر ؟ ومتى تزول ؟ وكيف تنشأ على انقاضها قوى جديدة ؟

الحزب يا زميلي ، ودعني اذكرك بمقولة ماركسية اساسية ، تعبير عن مصالح طبقة اجتماعية فهل توجد طبقة اجتماعية في

الوطن العربي لم تمثل سياسيا ؟ ان لكل طبقة حزبا ، بل للطبقة الواحدة ، احيانا ، اكثر من حزب . وهذا ناشيء ، لا عن رغبات القادة ، بل عن تمايز في تفسير ايديولوجيا الطبقة العاملة والاشتراكية العلمية ، وهو تمايز ثانوي الان ، لكنه يحتم التميز والاستقلال .

ان الحزب ، ليس تجمعا لفئات ذات منابت متناقضة ومتباينة، تنعكس في نزعات متضاربة تاكل احداها الاخرى . انه نشوء وارتقاء : نشوء مجموعة من المناضلين المسلحين بفكر ثوري ، وارتقاؤهم ، عبر النضال ، الى تنظيم جماهيري واسع . واذا ما صادف وجود بعض التنظيمات المتقاربة في المنطلقات الاساسية، فان وحدتها لن تتم الا من خلال عملية توحيد طويلة تضع في الاعتبار، الاختلافات الثانوية، وما تركته من تركيبات سايكولوجية وايديولوجية متباينة . فمسالة المراحل والتدرج ، ضرورية ، حتى عند دمج عناصر متقاربة ومتماثلة في المنطلقات الاساسية فكيف يمكن ، اذن ، دعوة عناصر وتجمعات ، تجمعها رابطة (تكتيكية) مرحلية تنطوي على اشد التناقضات الاجتماعية والذاتية ؟

والمثال الكوبي ، يا زميلي ، مختلف كليا : ان العناصر التي وحدها كاسترو لم تكن متناقضة ايديولوجياً ، ذلك التناقض الحاد والمزمن . لقد كانت جميعها عناصر ماركسية او في طريقها الى التمركس ، فجاء كاسترو ، بقوة شخصيته ، ليكون عاملا ذاتيا يعجل بصهر هذه الفئات. وحتى بعد ذلك، برزت تناقضات، خطيرة شوهت بعض ملامح التجربة الكوبية ، فاقصى المناضل كاسترو بعضا من الشيوعيين (الرسميين) .

اما أولئك الذين تدعوهم لتكوين التنظيم (الواحد الوحدوي الجديد) فما هم ماركسيون على وجه ، ولا هم بورجوازيون صغار على وجه ، انهم خليط من هذين الطابعين وأكثر وأقل احيانا . اننا نسميهم في العراق «زرازير» والزرزور عصفور صغير ملون

يكثر من القفز والانتقال ، وما ان يحل منتصف الشتاء حتى يختفي .

لقد صدمت بعنف ، عندما استيقظت من اعجابي الشديد بتناولك للمقدمات المنطقية باقتراحك ، الذي اسمح لي ان اقول انه ساذج . كيف يمكن ان تبني حزبا وحدويا بدعوة احزاب قائمة وتمثل مصالح اجتماعية راسخة لتحل نفسها ؟ هل انتهى دورها التاريخي باضمحلال المجتمع الطبقي ؟ ام انها تشرنقت في حدود نزعة دوغمائية ؟ ثم هل يمكن مقارنة دور حزب البعث مثلا بدور الحزب الشيوعي الكوبي الذي تحجر فتجاوزه كاسترو ؟ ان المسألة مقلوبة تماما ، لأن البعث يلوح حتى الان ، في مقدمة القوى الثورية المتطورة ، ليس في الوطن العربي فحسب بل على صعيد عالمي .

لو انك يا زميلي ، قد تتبعت اتجاه البعث الايديولوجي والسياسي، لوجدته قد اكتشف قبل بعض الشيوعيين الثوريين، ومعهم ، الكثير من المسائل ، وعلى نحو رائع . فلقد اكتشف عجز البورجوازية الوطنية وربط ذلك بالمسالة القومية ، واكد ان الكفاح المسلح هو الرد الطبيعي على العنف الاستعماري ، «فما دامت الامبريالية قائمة فلا مناص من الكفاح المسلح» ، واعطى رايا في التعايش السلمي وأثره على مسار الثورة العالمية ، ونقد مظاهر التحلل في بعض اوساط الثورة العالمية الخ ، لو انك تتبعت ، يا زميلي ، كل ذلك ، لادركت ان الحزب مهيأ اكثر من اي قوة اخرى للتطور ، حتى النهاية ، ليمثل نزعة العصر في اوساط الثورة العالمية .

نعم .. الاحزاب الثورية تبدأ بواحد ، ولكن الواحد الذي تحدثت عنه ، لم يستطع ان يمتلك «اسرار» الكون الا عندما اكتشفها وقدر امكانات الطبقة الثورية في العالم «كما هي» آنذاك، والاحزاب التي تدعي تمثيلها والتي كانت احزابا عمالية عرجاء ،

حولاء ، فجاء عاصفة هادرة في الاممية الاولى ليسحق الاتجاهات الفوضوية ، ويبني اول تنظيم طبقي وثوري حقا في العالم .

انا معك ، حتى النهاية ، ان هذه الاحزاب تحمل بعض التناقضات الثانوية ، وان على بعضها مآخذ كثيرة ، ولكنها ، وهنا اختلف معك ، تناقضات ومآخذ (طبيعية) ولا غرابة فيها ، بل الغرابة، كل الغرابة ، عندما نجد حزبا يدعي انه (كامل) وبمستوى المرحلة (تماما) وو الخ ، من الدعوات المبتذلة .

ان الحزب جزء من الطبقات ، جزء من الجماهير ، انه طليعة متقدمة لهذه الجماهير ، لذلك يحتفظ بشيء من سلبيات المجتمع. والمعالجة لا تتم بقطع الرقبة عندما تتعفن اليد ، بل ببتر اليد نفسها ومعالجة الجسم ليتعافى تماما . في الحالة الاولى ، عندما قطعنا الرقبة ، وقعنا صرعى نزعة نيتشوية (٢١) متطرفة ، وفي الحالة الثانية ادركنا مشارف العلم والنضوج . وهذا ما يحصل في هذه الاحزاب في محاولة لتصفية سلبياتها ، وخصوصا عندما استيقظت اجزاء اساسية من بعض الاحزاب الشيوعية العربية ، لتطرح نفس مواقف البعث الثورية والحازمة : الكفاح المسلح ، الجبهة الشعبية التقدمية ، رفض مؤتمرات القمة ، ربط الوحدة العربية بمصالح العمال والفلاحين ، اعتبار دولة اسرائيل قاعدة امبريالية عدوانية لا يجوز الاكتفاء بمطالبتها بالانسحاب من الاراضي المحتلة حاليا بل ان ازالة قاعدة العدوان شرط اساسي لازالة مصدر العدوان ، اسقاط البورجوازية الوطنية الخ .

---

٢١ ـ يرى فردريك نيتشه ان الانسان الراهن ، كائن مرحلي ينبغي ان يبذل نفسه من اجل الانسان الآتي ، والانسان الحالي قانونه الاساسي وفضيلته العظمى ، هي القوة ، حيث لا يجوز بقاء الضعيف او المعلول . لانهما يشوهان صورة الانسان الآتي .

الم يكن ضروريا ، يا زميلي ، ان تطلع على هـذه التطورات قبل البت في موضوع (الحزب الوحدوي الجديد) ؟

ثانيا : منهج مضطرب وتناقض واضح . يقول الزميل فـي ص ٤٩ ما يلي : «نظرا للوهن النوعي المكين في كيانها وقواعدها الاقتصادية والاجتماعية وبحكم تشكلها نفسه فان الرجعيةالعربية كطبقة مرتبطة بحليفين : بالاستعمـــار اولا وباكثر الطبقـــات الاجتماعية تخلفا وردة ، وثانيا : الاقطاع العشائري والبورجوازية التجارية الكبيرة الطفيلية والضعيفة عددا وامكانيات ، وهاتـــان الطبقتان والفئات الواقعة تحت نفوذهما من الطبقات المالكـــة الاخرى ، خلافا للبورجوازية الصناعية التي لم تتشكل كما يجب في الوطن العربي والتي لم يعد في الامكان نموها كطبقة سائـدة نظرا لعلاقات عصر الاستعمار الجديد ، تشكل جميعا عقبة للتقدم الاقتصادي حتى في منظور راسمالي» . ويستطرد «ولـــذا فالرجعية العربية عكسا لكل ثرثرة مهما كان مصدرها ليس لها بسمارك عربي . وهي خلافا للبورجوازيات الاوربية في القـــرن التاسع عشر ليست قومية . لانها تقوم بوظيفة حراسة المصالح الاستعمارية في المنطقة» (٣٢) . ويقول ايضـــا «والاسوأ ان الراسمالية العربية كانت احيانا ـ مثل بعض دولها ـ من صنع مخططات بريطانيا اكثر مما هي وليدة قرار الحركة التاريخيـــة لصعود طبقات وهبوطها» (٣٣) .

اعتقد بان هذا التحديد لطبيعة الرجعية العربية لا يختلف فيه اشتراكيان علميان ابدا . ولا اجد ضرورة للاستشهاد ، اكثر، بما قاله الزميل الاخضر . باختصار لقد قال :

---

٣٢ ـ دراسات عربية ، العدد المذكور ، ص ٥٠ .

٣٣ ـ دراسات عربية ، العدد المذكور ، ص ٥١ .

١ ــ الرجعية حليفة ومرتبطة بالاستعمار . ٢ ــ الرجعية تشكل عقبة للتطور الاقتصادي حتى في منظـــور راسمالي . ٣ ــ الرجعية تقوم بوظيفة حراسة المصالح الامبريالية في الوطن العربي . ٤ ــ الرجعية وليدة مخططات بريطانية ، اي حاجات بريطانية استعمارية .

الثورة في الوطن العربي ، اذن ، تضع على راس مهامهـــا تصفية الرجعية ، بصفتها الممثل الرسمي (المحلي) للاستعمار، في حالة غيابه عسكريا ، والاداة الطيعة في حالة تواجده عسكريا . لان تصفية الرجعية ، اقتصاديا وسياسيا واجتماعيا ، الخطوة الاولى لتصفية المصالح الامبريالية في المنطقة . فنضال التحرر القومي العربي ، قد اكتسب طابعا مزدوجا نتيجة ارتباط الطبقات الرجعية بالاستعمار : الاول : تصفية الاستعمـــار ومصالحه ، والثاني : تصفية الطبقات الرجعية ، ومن ثم ، القيام بتحولات اجتماعية جذرية . هاتان المسألتان مترابطتان ، وعلى نحو عميق وموصول ، وهي تصلح كمقدمة ايديولوجية يتاسس عليها موقف سياسي ثوري ومبدئي :

١ ــ فما دامت الرجعية حليفة للاستعمار ، فينبغي ادراجها ضمن القوى المعادية .

٢ ــ ان اي تطور اقتصادي (اساسي) لن يتم الا عبر تحطيم العلاقات الانتاجية شبه الاقطاعية ــ شبه الراسمالية .

٣ ــ ان اي تحالف سياسي بين طبقـــات الشعب ينبغي ان يتركز «قياديا» على الاقل ، في يد الطبقات المعاديـــة للاستعمار فعلا والقادرة على مقاومته والصمود في المعركة الطويلة معه . ولا باس من الاستفادة من «امكانات» الطبقات الرجعية والوسطيـــة التي لها اكثر من وشيجة بالاستعمار ، عن طريق «الضغـــط الشعبي» على شرط ان تكون هذه الطبقات في مواقع «التأييد»، وليس في مواقع «القيادة» و«التخطيط» من جهة ، كما يجب ان

تمارس تجاهها سياسة تعرية جماهيرية ، وإدانة مستمرة كلما خرجت عن التزاماتها تحت ضغط الامبريالية . ان الضغط الجماهيري مؤثر وقادر على دفع «بعض» وليس «كل» القوى الرجعية في المعركة ، ولكن لا ينبغي لنا ان ننسى ونمحو فورا طبيعة هذه الرجعية .

ان تاريخ الثورة العالمية يعلمنا بان اي تحالف (تكتيكي) يضع في الاعتبار توزيع القوى البشرية والطبيعية للقوى المتصارعة . فان كانت قوى الثورة مكتفية ، بشريا واقتصاديا فان عليها ان ترفض بحزم التحالف مع القوى الوسطية والرجعية ، وعلى نحو حاسم ، لان هذا التحالف ، لن يؤدي ، في افضل الاحوال ، الا الى اعطاء وثيقة براءة للرجعية .

اما اذا كانت قوى الثورة ، تعاني عجزا او ضعفا اقتصاديا ، كما هو الحال مع قوى الثورة العربية ـ اذ تتركز مصادر الثروة في أياد رجعية غالبا ـ فأن عليها ان تضع ستراتيجية متكاملة واضحة ، تضع في اعتبارها ، ان الهدف الاساسي ، هو دعم قوى الثورة وتوسيع قدرتها على التحرك والنمو ، اكثر مما تتيح للرجعية مثل هذه الفرص . نعم .. يمكن احيانا التراجع المنتظم، الا ان التراجع ينبغي ان يأتي ضمن خطة عامة تنتهي بهجوم كاسح لا العكس ، اي استمرار التقهقر . كما يجب ان تحتفظ خلاله طلائع الثورة بكامل استقلالها السياسي والايديولوجي .

السؤال المهم هو : هل ترغب الرجعية العربية بالمساهمة في المعركة القومية الراهنة ؟ والجواب ، بالتأكيد ، كلا ، لانها موجهة، اساسا ، ضد مصالحها الستراتيجية . ولكن هذا التبسيط مبتذل وسطحي . اذ ان ملابسات الثورة العربية ، قد انتجت مزيجا من الاوضاع يؤثر باتجاهات متناقضة احيانا . فقضية فلسطين ، هي المحرك الرئيسي للملايين العربية ، وكل نظام مهما كانت طبيعته الاجتماعية ، لا يتخذ الحد الادنى من المواقف المؤيدة

للقضية ، يعرض نفسه للسحق ، او الخطر في افضل الاحتمالات.
وهنا تظهر مسألة جديدة : تحاول الرجعية الظهور بمظهر المدافع عن القضية ، وهي تمتلك امكانات اقتصادية لا سبيل الى تجاهلها، وهي بنفس الوقت كلب حراسة للاستعمار وتوام طبيعي لاسرائيل.
فما العمل ؟ والجواب بسيط ، رغم هذا التعقيد الظاهر ، اذ ان قوى الثورة العربية ، تمتلك طاقات جماهيرية هائلة ، بالاضافة لحدود معينة من المصادر الاقتصادية التي تسد بعض الحاجات الاساسية . والمرحلة ، قبل حرب حزيران ، تتسم بتصاعد النضال الثوري الجماهيري ـ لقد لعب حزب البعث والمنظمات الفدائية الدور الاساسي في هذا التصاعد ـ اي ان الثورة في حالة هجوم ، في حالة مد . وهذه الحالة تستدعي تحالفا ستراتيجيا سياسيا هيكليا ، يضم الاحزاب والنظم التقدمية في جبهة سياسية عسكرية تقود النضال الدائر ، وتضع الستراتيجية السياسية والعسكرية ـ ينبغي التذكير هنا ان الثقل البشري تملكه العربية المتحدة ـ قبل الخوض في اي محاولة للاستفادة من الرجعية . لان وضع هذين الستراتيجيتين السياسية والعسكرية ، خطوة اساسية قبل اي تحالف تكتيكي ، اذا ما اردنا ان لا تستلم الرجعية زمام المبادرة والقيادة . ثم بعد ذلك، وبعد ذلك فقط ، يبدأ الضغط الجماهيري على الرجعية «لتدعم» و«تساهم» في تنفيذ الستراتيجية العسكرية والسياسية ، اللتين وضعتهما قوى الثورة. ان الرجعية ستكون بين المطرقة والسندان، فهي اما ان تؤيد قوى الثورة في نضالها ضد الصهيونية والامبريالية وتمدها بالعون المادي ، واما ان تسقط تحت ضربات الجماهير .

اذن ، فوحدة العمل العربي ممكنة ، في الحالة التي تكون قوى الثورة مهياة لوضع استراتيجيتها ، عسكريا وسياسيا ، وقادرة على بلورة وجهة نظرها لتكون اساسا لكل تحرك عربي ، لا

العكس . وبدون هذه الحقيقة ، يصبح اي تضامن او عمل عربي موحد ، لا اكثر من واجهة لخدمة الرجعية ، التي هي ، موضوعيا، «حارس مصالح الامبريالية ووليد خطط بريطانية» .

وان أولئك الذين ينظرون للمسائل ، من زاوية ضيقة ، ولا يتعدون حدود انوفهم ، لا يدركون الآفاق «التاريخية» للصراع والطبيعة «المرحلية» للانحدار الراهن . وهذا يعني عجزهم عن رؤية «امكانات» الجماهير ومنظماتها الثورية «الحقيقية» والتي تتبلور يوما بعد يوم ، في تصعيد الكفاح المسلح وانتشاره ، وتحوله الى بعبع يرعب العدو العنصري .

هذه النتائج التي ذكرتها ، تفرز تلقائيا من الفرضيات والمقدمات التي اكدها الزميل في مقالته ، وكل نتيجة ، او موقف، مغاير تغايرا جذريا ، خروج عن المقدمات ، وتناقض واضح لا سبيل الىتغطيته بتبريرات سطحية، وفرضيات مجردة لا تتزاوج مع الواقع .

لقد وقع الزميل في تناقض واضح ادى الى خروجه على مقدماته بصدد الرجعية ، ففي صفحة ٧٠ يتساءل : «هل صحيح ان التضامن العربي ، في ابسط مستوياته ، بين جميع الاقطار بما فيها الرجعية لم يعد اليه من سبيل ؟ فيما يخصني اجيب بالنفي . لان التضامن العربي ، في حدود معينة ، ضرورة مرحلية لا غنى عنها للجميع ليس فقط لمحاولة الرد بفاعلية على اخطار الاحتلال الاسرائيلي ومخططات الغزو السافر» .

ثم يتابع «بل لحمل الشركات البترولية على بعض التنازلات الجزئية لتخفيف حدة النهب المتمثل في تحويل الدخل القومي العربي من الاقطار المالكة او المنتجة اسميا للبترول لصناديق الاحتكارات الاجنبية ومشاريعها خارج الاقطار العربية ، والحد الادنى المشترك من هذا النوع بين الاقطار المنتجة للبترول والتي يمر عبر ترابها يتلخص في النقاط التالية» والنقاط هي :

١ ـ «اجبارها على زيادة ارقام التوظيفات للتنقيب عن البترول في الاقطار العربية .

٢ ـ مطالبتها بتنمية صناعة التكرير على عين المكان .

٣ ـ الضغط المشترك على الاحتكارات لتوظيف جزء ـ على الاقل ـ من الارباح في الاقطار المعنية بدلا من تصديرها كلهـــا للخارج .

٤ ـ ارغامها على تطوير الصناعات البتروكيمياوية في الاقطـــار المنتجة للبترول» (٢٤) .

ثم يختم الزميل كلامه : «ما دامت شروط تصفية جذريــة للاستعمار الجديد لم تتوفر بعد فلا أقل من التضامن العربـــي الضروري للحد من فداحة المصاب . بالتاكيد الرجعية العربية غير قابلة للاسترجاع لان التناقض بينها وبين الامة والثورة أصبـــح تناقضا عدائيا نهائيا» (٢٥) . ولا يكتفي الزميل الاخضر بذلك ، بل يسرد جملة أدلة مادية على خدمة الرجعية للاستعمار . اما اطار هذا التضامن ، فيحدده كما يلي : «الاطار المعروف لهذا التضامن هو مؤتمرات القمة ، ومؤتمرات القمة رجعية اذا كانت بديلا عن الوحدة ، ورجعية اذا كانت بديلة عن العمل الثـــوري العربي ، ورجعية اذا استطاعت الانظمة الرجعية ان تملي فيها شروطها . لكنها لن تكون رجعية بل بالعكس ، اذا كانت تعقد تحت تهديـــد

---

٢٤ ـ تبدو هذه المقترحات مجرد تمنيات طيبة ولطيفة . اذ ان الرجعية لا تمتلك القدرة على مواجهة شركات النفط الاحتكارية . وهذه سني النكسة اذ لم تحرك الرجعية كل (صرخات القدس) والمذبين ، ليس فقط لعمالتها ، وانما لعجزها (العملي) عن التصدي الجاد المستمر للامبريالية . ان انظمة تقدمية هي وحدها القادرة على مجابهة شركات النفط واجبارها على التخلي عن امتيازاتها .

٢٥ ـ دراسات عربية » العدد المذكور ، ص ٧٠ .

الجماهير لتحقيق الحد الادنى من التضامن العربي (٣٦) . هـــذا التحديـــــد رائع وثوري ومبدئي ! ولانه رائـــع وثـــوري ومبدئـــي وقعت يا زميلي فـــي تناقضـك واضطرابـــك الواضحين . اذ ماذا قدمت مؤتمـــرات القمة المتاليــــة ؟ صحيح ان بعض التقدميين قد حصلوا على مساعدات مالية ، الا ان الاصح ان الرجعية حققت ما يلي :

١ ـ حصولها على وثيقة براءة واقرار بوطنيتها ومعاداتها للاستعمار والصهيونية .
٢ ـ شنها حربا استعمارية ضد ثورة اليمن الصامدة ، استخدمت فيها هذه المرة المرتزقة .
٣ ـ اعادة ضخ البترول لدول العدوان وبذلك اجهضت اول تجربة لمقاومة الاحتكارات .
٤ ـ اعادة العلاقات الدبلوماسية مع بعض دول العدوان .
٥ ـ ابقاء الارصدة الاسترلينية في بنوك دول العدوان .
٦ ـ التصدي للعمل الفدائي من قبل بعض النظم الرجعية .
٧ ـ شن حملات ارهابية ضد المناضلين في بعض الاقطار العربية .
٨ ـ المساهمة في التآمر على الانظمة التقدمية .
٩ ـ تركيز حملة صليبية على الاتحاد السوفييتي والمعسكـــر الاشتراكي وتحميله مسؤولية النكسة ، في الوقت الذي يقوم فيه بمساعدتنا على النهوض من كبوتنا . بينما يستمر الغزل مع جونسون وولسون .

هذه النتائج وغيرها الا تكفي ، كدليل مادي ، لرفض مؤتمرات القمة والتعاون مع الرجعية ضمن الشروط القائمة ؟

ثالثا : قصور كامل او تعمد الاعراض عن تقييم مواقف وافكار بعض القوى التقدمية ، تقييما موضوعيا : أ ـ في معرض دعوة

---

٣٦ ـ دراسات عربية ، العدد المذكور ، ص ٧١ .

الزميل لانشاء «الحزب الوحدوي الجديد» يقترح ما يلي : «ومن رايي ان ميثاق التنظيم المنتظر يجب ان يتضمن لا فقط الاشتراكية كشعار غير محدد ، بل لا بد من تحديد ملامحهـــــا الاساسية : اشتراكية ماركسية لينينية ، اذ لا اشتراكية علمية سواها ، ذات تطبيق عربي ديمقراطي» (٣٧) .

المؤتمر القومي السادس لحزب البعث العربي الاشتراكي ، كما ذكرنا سابقا ، اقر ان الاشتراكية واحـــدة في العالـــم ، والاختلاف هو في طرق التطبيق ، اي ان ثمة طريقا عربيـــا للاشتراكية العلمية .

ويقول : «من رايي ايضا هجر خرافة عدم الانحياز لاحـد قطبي التناقض العالمي الراهن بين المعسكر الاشتراكي والثـوري من جهة والمعسكر الامبريالي الرجعي من جهة ثانية»(٣٨) . ويقول: «والثورة العربية لكي تطرح اعداءها القوميين والطبقيين ارضـــا عليها ان تنسق تاكتيكها مع الثورة العالمية لعزل معسكر الثـورة العالمية المعاكسة وضربه بالجماهير المنظمة» (٣٩) .

وجاء في المنطلقات النظرية ما يلي ، وهو ، اي كلام الزميل الاخضر ، تكرار لما ورد في المنطلقات بهذا الصدد : «لقد وضع حزب البعث العربي الاشتراكي حالة النضال ضد الاستعمار ضمن اطارها الدولي والانساني واعتبر المعسكر الاشتراكي قوة ايجابية فعالة في النضال ضد الاستعمار ، ولم تستطـــع ...» يشرح الظروف المشار اليها سابقا ثم يقول «لم تستطع ان تحجب عن حزب البعث العربي الاشتراكي التقاءه العميق مع المنطلقـــات

---

٣٧ ـ دراسات عربية ، العدد المذكور ، ص ٥٦ .

٣٨ ـ دراسات عربية ، العدد المذكور ص ٥٦ ـ ٥٧ .

٣٩ ـ دراسات عربية ، العدد المذكور ، ص ٥٧ .

الاساسية المبدئية لسياسة المعسكر الاشتراكي» (٤٠) .

وعندما ينتقل الزميل الى النقطة الاخرى التي لا يجوز ان يهملها الميثاق يؤكد على : «تحديد التاكتيك الوحدوي للتنظيم القومي ، اي موقفه من مختلف الانظمة القائمة الان في الوطن العربي بعد تحليل طبيعتها العميقة وعناصر تركيبها لعواملها الاولية. ومن هنا بالضبط المواقف منها والتي يجب ان تكون متناسبة مع طبيعة ودرجة تقدمية او رجعية كل منها» (٤١) .

ولا أعتقد ان حزبا او نظاما عربيا قد حدد وفرز النظم القائمة في الوطن العربي كما فعل الحزب ، وتناولنا لموضوع الرجعية ودور البورجوازية الصغيرة وطبيعتها ، قد ابرز الى اي حد اصاب الحزب في تشريحه وتحديده لطبيعة النظم العربية . **ماذا يعني ان نقترح ميثاقا يتضمن نقاطا معينة** ؟ ان ذلك يعني ، بالضرورة ، خلو هذه النقاط من برامج وستراتيجيات الاحزاب القائمة . وهذا هو المبرر المنطقي والعلمي الوحيد . ولكن ترى ، لو ان حزبا قد ادرج هذه النقاط ، ضمن ستراتيجيته ومنطلقاته، بل واعتبرها مبرر وشكل وجوده ، وخاض نضالا مجيدا لمراحل طويلة من اجلها فماذا يعني ذلك ؟ هل يعني عدم المام بمواقف ذلك الحزب ؟ ام تجاهلا متعمدا لما اقره واعتبره مبرر وشكل وجوده ؟

الزميل يطالب بأن يكون التنظيم «قوميا» ، اي يشمل الوطن العربي تخطيا لواقع التجزئة ، وانا اتساءل : هل نسي ان البعث هو اول وآخر ، تنظيم قومي ، نجح ، ولو ضمن حدود معينة ، في طرح موضوعة الاداة القومية الشاملة ، وعلى نحو عملي ، فتخطى بذلك ، وعمليا ، واقع التجزئة ؟ ثم لماذا نجح البعث في

---

٤٠ ـ المنطلقات النظرية ، ص ٤٤ ـ ٤٥ .

٤١ ـ دراسات عربية ، العدد المذكور ، ص ٥٧ .

بناء تنظيم قومي لا يزال يرفد بتيارات لا تنضب من القواعد الجماهيرية الواسعة ، بينما فشلت وتلاشت جميع المحاولات الاخرى المقلدة ؟ لقد طرح الحزب نفسه ، حزبا قوميا ، ورفض ، منذ البدء ، اي تشكيلة او محاكاة اقليمية ، واعتبر ذلك مظهرا مرضيا ، يجب تصفيته . ولهذا يلوح البعثي منذ ربع قرن ، قوميا قبل اي اعتبار قطري ، بل ان البعض يعتبر ذلك مآخذا على الحزب . واذا ما وجد «شحوب» وضعف في بعض منظمات الحزب ، فذلك يعود لاسباب موضوعية بالاضافة لعوامل ذاتية ، لن يستطيع ، يقينا ، التنظيم المقترح تخطيها . ولقد اولى الحزب اهتمامه الى العوامل الذاتية ، واخذ يعالجها الواحدة تلو الاخرى، بحدود امكاناته ، فاستطاع ان يحقق نجاحا نسبيا ، تجلى في الدور القيادي للحزب في قيادة النضال الجماهيري في تونس ، وصمود اعضاء الحزب الرائع امام ارهاب سلطة بورقيبة الرجعية .

ب ـ في الصفحة ٤٧ يقول الزميل الاخضر «بالتأكيد القيادات القومية للبورجوازية الصغيرة ، اليسارية منها بالاخص، تؤمن بامكانية الوحدة العربية ، وعلى مدى اطول بحتميتها ، الا انها لم تحاول بنجاح ان تقدم تبريرا للوحدة ينبع من الحتميات الاقتصادية وعلاقات العصر الامبريالي وتحدياته التي جعلت لا من الوحدة العربية وحسب بل من كل وحدة ضرورة لا سبيل من النزول عند احكامها . لقد اكتفت على العموم بالتذكير بالماضي الوحدوي للامة العربية ، وشددت النبرة على الجوانب الذاتية والعاطفية للوحدة ، غير عابئة ـ وهذا امر تقتضيه طباعها ـ بما هو موضوعي قائم في عالم الواقع لا في عالم الفكر والوجدان» . وفي نفس الصفحة يقول الزميل ايضا : «لم يطرح مضمون الوحدة الاجتماعي والديمقراطي على نحو لا لبس فيه : فالدور العملي الذي يجب ان تلعبه الجماهير في صيانة الوحدة وفي دفع

مدها وتنمية حركتها سواء على مستوى !القطرين المتحدين او على مستوى الوطن الكبير لم تقع حتى مجرد الاشارة الواضحة اليه لا في ميثاق ميلاد ج.ع.م. ولا في ميثاق الوحدة الثلاثية التي بقيت حبرا على ورق» . ثم يقول «لم تطرح ـ وهذا خطأها الافدح ـ اطروحة الاداة الوحدوية التي تمتلك استراتيجية وحدوية واضحة وتاكتيكا وحدويا مرنا ومدروسا» (٤٢) .

وبدون اي تعليق مسبق ، ينبغي مقارنة مآخذه ، بما ورد في المنطلقات النظرية للحزب والتي تعتبر المرجع الاساسي الذي يلغي ما يناقضه او يتعارض معه في موضوع الوحدة العربية ، ورأي الحزب فيها ورد كما يلي : «لقد اكد التطور الواقعي للنضال العربي .الطابع الاشتراكي والشعبي والثوري لمعركة الوحدة العربية :

أ ـ لقد اصطدم النضال القومي العربي بالاستعمار باعتباره خالق التجزئة والحريص على بقائها وتكريسها باعتبارها وسيلة استمرار نفوذه واحتكاراته في الوطن العربي .

ب ـ واصطدم النضال القومي العربي بالاقطاع كأسلوب انتاج فات أوانه وكطبقة سياسية في آن واحد باعتبار ان الطبقة الاقطاعية هي الطبقة العميلة بصورة مباشرة وصريحة للاستعمار.

جـ ـ واصطدم النضال القومي العربي بالبورجوازية الوطنية، نظرا لان بورجوازية كل قطر قد نمت بشكل مستقل ومعزول عن بورجوازيات الاقطار الاخرى ، فحولت كل من البورجوازيات القطرية التناقضات بينها الى تناقضات اقليمية بين قطر وآخر ، لذا وجد النضال القومي العربي نفسه مجبرا على ازالة العراقيل البورجوازية كسبيل لتخطي الحدود الاقليمية ، وصنع وحدته

---

٤٢ ـ دراسات عربية ، العدد المذكور : ص ٤٨ .

القومية .

ولهذه الاسباب كلها ، فان حركة القومية العربية هي قضية جماهير العمال والفلاحين والبورجوازيـــة الصغـــيرة والمثقفين الثوريين ، وبالتالي ، فقد اصبح طريق القومية العربية هو طريق العرب نحو الاشتراكية . لذا فان الوحدة العربية تأتي اليوم ضمن افق تاريخي صحيح ، وهي تعبر عن حاجة الجماهير الى التحرر وعن رغبتها في تحريك كامل قواها لتحطيم العراقيل التي تقف بطريق تقدمها . ولأن سير التطور الواقعي للحركة القومية قـــد سار في هذه المسارب التاريخية الجديدة ، لذا فان دفع حركة الوحدة الى الامام يوجب اللجوء الى عوامل موضوعية لبناء أسس هذه الوحدة ورسم اطارها ، فالعوامل الذاتية والعاطفية لم تعد قادرة على بناء وحدة تجابه الاستعمار بمجموعه ، كما تجابه في الوقت نفسه اعداء طبقيين داخليين تفقدهم الوحدة مواقعهـــم الممتازة ونفوذهم وتسلطهم . ان الوحدة بين اقطار خلفت التجزئة فيها الرواسب الاقليمية المتخلفة والمصالح الضيقة عمل ضخـــم جبار يتحدد بالضرورة في التزام ايديولوجي وذلك على الصعيد الاجتماعي والاقتصادي والسياســـي على السواء . وهـــذه الايديولوجية لا بد ان تكون معبرة بأمانة عن مصالح الجماهير من جهة ومعتمدة عليها كتنظيم من جهة اخرى . فلكي نضمن للوحدة الشروط الموضوعية لانطلاقة صحيحة ، لا بد ان تنبثق عن جماهير واعية مكونة تكوينا سياسيا، مسؤولة ومنظمة تنظيما محكما، وبما ان روح الديمقراطية هي الايمان بالجماهير لذا فان الكفـــاح الوحدوي هو كفاح ديمقراطي اشتراكي بالضرورة» (٤٢) .

ثم تتناول «المنطلقات» قضية الوحدة من زاوية مبرراتهـــا

---

٤٢ ـ المنطلقات النظرية ، ص ٣٢ ـ ٣٣ .

فتقول «لم تعد الوحدة العربية في هذه الظروف مجرد تجسيد عملي لوحدة الشعب القومية ، بل اصبحت محركا للنضال العربي ايضا ، سواء على الصعيدين السياسي والاجتماعي :

١ ـ ان دولة العرب المنشودة لن تكون ضربا من الدول القومية التقليدية التي قامت على اساس قومي مجرد ، فالمصالح البورجوازية القطرية ، بالاضافة الى الاقطاعية والطبقات الاحتكارية ، اصبحت عدوة للوحدة ، فالنضال الجماهيري الوحدوي الذي اصبح مضطرا لازالة هذه العراقيل الاقليمية يصنع اشتراكيته في نفس الوقت الذي يصنع فيه وحدته .

٢ ـ لم تعد الوحدة العربية مجرد تحقيق لماض سلف ، بل هي ضرورة مباشرة في معركة الوجود العربي ضد الاستعمار بشكليه القديم والجديد . فالطريق الى استعادة الاجزاء السليبة من الوطن العربي ، وتدمير الاحتكارات الاستعمارية وسد المنافذ امام تسلل الاستعمار الجديد ، لا يمكن ان تتم بصورة نهائية واكيدة الا عبر النضال الوحدوي . ان التجزئة والتخلف هما المناخ الطبيعي الذي يعيش فيه الاستعمار . ففي غمرة التناقض والتنافس اللذين لا بد ان يوجدا بين الكيانات الصغيرة المصطنعة يجد الاستعمار مجالا لتسلله . وبالاضافة الى ذلك فان سياسة الدول الصغرى ، تبقى دوما والى حد كبير ـ مهما تحررت ـ مجرد رفض سلبي للسياسة الاستعمارية ... لذا فان دولة الوحدة ، وهي دولة كبيرة بالضرورة ، هي التي يمكنها ان تنقل السياسة العربية من مجرد الرفض السلبي الدفاعي، الى ممارسة سياسية ومبدئية على النطاق الدولي ودون انتظار لالتقاط صدى هذه السياسة في المعسكرات الدولية . ان الثقل الكمي والنوعي لدولة الوحدة الضخمة يعطيها من القوة والمنعة ما يمكنها من توجيه الضربات الثورية العادلة والمشروعة لبقايا مواقع الاستعمار القديم واحتكاراته وعميلته اسرائيل ، وهو الذي سيسد الطريق

بشكل حاسم ونهائي امام تسلل الاستعمار الجديد .

٣ ـ ان الوحدة ستتيح الفرص الجدية لانطلاق الاقتصاد العربي انطلاقا سريعا . فالحدود الاقليمية كانت عاملا اساسيا في لجم انطلاق اقتصادي عصري باعتبار ان التسويق هو الوجه الآخر للتصنيع . وضيق الاسواق القطرية عامل هام يعرقل التطور الاقتصادي العربي ويمنعه من ان يأخذ كل مداه في انطلاقته ، وتكاد ان تتحول هذه الحدود الى سبب لاختناق اقتصادي في الاقطار العربية الصغيرة . فالجانب الاقتصادي للوحدة العربية يهيىء الظروف الموضوعية لقيام اقتصاد الابعاد الكبيرة ، ولانشاء صناعات متطورة وضخمة وعصرية تستطيع ان تقف بجدارة واقتدار في وجه المزاحمة الاجنبية بعيدة عن اسوار الحماية الكمركية لصناعات متخلفة وصغيرة وغير اقتصادية . وبالاضافة الى كل هذا فان التكامل الاقتصادي المتوفر في وطننا العربي سيكون مهمازا لتطور سريع للاقتصاد العربي بمجموعه ، فالثروات الطبيعية الكثيرة والمتنوعة المتوفرة في الوطن العربي ، هي التي تهيىء الظروف الموضوعية للافلات من التبعية للدول المستعمرة، لان المسألة الحاسمة في التطوير الاقتصادي ليست مسألة توظيفات فحسب ، بل هي مسألة تسويق وتبادل ايضا ، كما ان الوحدة العربية ستزيل المزاحمة والتسابق في البحث عن وسائل التمويل الاجنبية وستلغي النفقات المزدوجة غير المعقولة لمشاريع التصنيع المتشابهة ، وستزيل اخيرا عدم التساوي في توزيع الموارد الوطنية ووسائل العمل بين اقطار الوطن العربي . لكل هذه الاسباب فان الوحدة ليست خلاصا قوميا فحسب ، بل هي ، بالنتيجة ، خلاص اقتصادي واجتماعي ، وقضاء على التخلف وسير سريع للحاق بركب التاريخ .

٤ ـ ان الاشتراكية هي المضمون الواقعي للوحدة العربية ، وان بناء الاشتراكية يجعل الوحدة الاطار البشري والاقتصادي

الاكثر انسجاما مع متطلبات شمول التجربة وجذريتها . فالبلدان الصغيرة لا تستطيع ان تصعد في طريق الاشتراكية بشكل منعزل لان التطوير الاقتصادي «والتصنيع بوجه خاص باعتباره القاعدة المادية للاشتراكية» سيبقى دوما مهددا بالجمود والاختناق ، لذا فان الوحدة العربية والاشتراكية قضيتان متلازمتان على الصعيد التاريخي والاقتصادي .

٥ ـ ان التطور الموضوعي لعالمنا الراهن يحث الخطى نحو كتل كبرى من الشعوب وقد تألفت دول عديدة على اساس قوميات متعددة ، كما اخذت تتبلور تكتلات سياسية واقتصادية تمهد لارتباطات أعمق وامتن واوثق ، كالوحدة الاوربية والسوق الاوربية المشتركة ، والمعسكر الاشتراكي، وكتلة الدول الافريقية. وان السعي لاحكام سيطرة الاستعمار الجديد على البلدان المتخلفة في ظروف تداعي وانهيار الاستعمار القديم ونشوء تكتلات سياسية واقتصادية دولية كبرى تجعل الوحدة العربية سلاحا للدفاع عن مصالح الشعب العربي . فالوحدة العربية ، بالاضافة الى كونها تجسيدا للقومية العربية ، تتفق وسير التطور الموضوعي لعالمنا المعاصر ، وهي ضرورة اساسية لمجابهة الاخطار الجديدة وهي الاساس الطبيعي لتطوير العلم والتكنيك العربي واللحاق بالتطور العالمي العاصف في هذا المضمار . ان الوحدة العربية اساس لا بد منه لاقامة مجتمع اشتراكي يواجه تحدي العصر الجديد ، عصر الثورة الصناعية الجديدة ، واخطار الاستعمار الجديد» (٤٤) . وعند تشخيص اداة الوحدة وطبيعتها ، اكدت المنطلقات «ان تعميق الطابع الاشتراكي الديمقراطي لاسس الوحدة ضمان اساسي لرسوخ بنيانها ، فالجماهير الشعبية هي وحدها

---

٤٤ ـ المنطلقات النظرية ، ص ٣٤ ـ ٣٧ .

المبرأة من رواسب الاقليمية وظروفها والمصالح التي تولدها .
فالعمال والفلاحون لن يفقدوا شيئا بزوال الحدود ، في حين ان
البورجوازية والبيروقراطية تفقد مواقعها الحقيقية عند زوال
الحدود . ان التعصب الاقليمي ضرب من الدفاع عن المصالح
الاقليمية التي تزيلها الوحدة . فالوحدة العربية في تطورها
الملموس هي ثورة قومية واشتراكية ديمقراطية في آن واحد»(٤٥).
ثم تتابع المنطلقات :

«ان القوى الثورية والجماهير المنظمة هي الادوات الموضوعية
التي تضع الوحدة وتنميها وترسخها ، لذا فان افضل اشكال
الوحدة وأرسخها هي التي تأتي حصيلة لنضال ثوري جماهيري
تقوده قوى ثورية منسجمة موحدة لان الوحدة العضوية بين القوى
الطليعية تجعلها اكثر جدارة واقتدارا في اتخاذ موقف موحد
منسجم حيال رواسب التجزئة وحيال مختلف القضايا
الاخرى» (٤٦) . ماذا يقول الان الزميل الاخضر ؟

من حقك ان تقيم قوى سياسية معينة ، ومن حقك ان
تشرحها .. هذا هو اساس الديمقراطية الشعبية ، ولكن ان
تتجاهل حقيقة هذه القوى ، وتلصق بها صفات غريبة او كانت
ملازمة لمرحلة طفولية ، ثم تجاوزتها القوة المعنية ، فذلك خروج
عن كل معايير النقد والتقييم السياسي العلمي . انك تبدو الان
يا زميلي ، من الناحية النظرية ، لا اكثر من مؤمن (بأساس)

---

٤٥ ـ المنطلقات النظرية ، ص ٣٩ . ينبغي الانتباه الى ان مصطلح «الاشتراكية الديمقراطية» الوارد في المنطلقات لا يعني (النزوع الاصلاحي) كما يستعمل عالميا ، بل كل الذي يشير اليه هو تلازم الديمقراطية (الشعبية) مع الاشتراكية .

٤٦ ـ المنطلقات النظرية ، ص ٣٩ .

المنطلقات النظرية للحزب ومردد متحمس لها ! وارجو ، لتتأكد من ذلك ، ان تعيد ، ويعيد معك القراء ، نص مقالتك ، ونص المقتطعات المأخوذة من المنطلقات النظرية . ستكتشف ، وسيكشف معك القراء ، حقيقة واحدة : انك لم تطرح موقف نظري جديد ، بل لم تضف حتى شكلا جديدا من اشكال التعبير السياسي . نعم ... لقد قالها المؤتمر القومي السادس صريحة وجريئة وثورية في آن واحد : ان فكرنا غامض بعض الشيء ، وهو بحاجة لشيء جديد . فكانت المنطلقات .

ولو انك الان تأملت المنطلقات بدقة ، لوجدت ان البعث هو الحزب الوحيد على مستوى الوطن العربي ، وكل قطر على حدة ايضا ، الذي استطاع الربط بين النضالين القومي والطبقي ، وعلى نحو ديالكتيكي رائع ، وان يكتشف قوانين العصر الاقتصادية والايديولوجية .

اننا نلاحظ الان فئات هامشية تردد (اسس) مواقف البعث، والتي شنت ضدها ، سابقا ، حربا ايديولوجية ودموية احيانا ، ماذا يعني ذلك ؟ انه يعني ان ايديولوجيا البعث ، ايديولوجيا الاشتراكية العلمية والنضال القومي ، قد وجدت المناخ الملائم منذ وجدت طلائع الحزب ، اي قبل ربع قرن . ان الحزب احتضن ، وسيحتضن ، كل بادرة للالتزام بمنطلقاته ، سواء ظهرت من فرد او جماعة ، لان اي نصر لمنطلقاته نصر له . الا انه يرفض بحزم ويعري حتى الجذور ، تلك العناصر التي تحتضن ايديولوجيا البعث بنفس الوقت الذي تدعو فيه الى تصفيته سياسيا او دمويا . البعث مع التفاعل ، لكنه ضد القسر والتشويش .

البعث لا يرفض نقدا موضوعيا ، لكنه يتصدى لتعمد الخلط والطمر .

البعث مع اللقاء ، لكنه ضد الالغاء ، نقيض الافناء .

نعم ، كانت للبعث مواقف وآراء غامضة ، وان للبعث حتى

الان (ترسبات) من تلك الآراء ، الا انه ، اساسا ، يمتلك جوهرا ايديولوجيا واضحا ، ومتماسكا ، يقوده باستمرار ، لتجاوز مواقعه (الآنية) و(المرحلية) سعيا وراء المزيد من الوضوح والبساطة والعلمية في اطار من الرصانة ، وبعيدا عن المزايدات وصهيـــل الخيول .

نتائج : بعد هذا النقاش الطويل ، الى حد ما ، ماذا تعني مواقف الزميل الاخضر ؟

هل هي مجرد مواقف ناجمة عن عدم المام ؟ ام انها تعني شيئا آخر ؟ انا شخصيا أميل الى الاعتقاد بإلمامه الكامل ، بالتطورات السياسية والايديولوجية التي طرات على الحزب ، الا انه (لامر ما) حسبما يقول ، تجاهل ذلك ، فوقع صريع نزعة ذاتية تلوح مزمنة، تشرنقه في اطار من المطامح المتطرفة والاحلام الرومانتيكية . ان نزعته الذاتية تلوح متجسدة فيما يلي :

١ ـ لقد قام الزميل بابراز جانب محدد من جوانب «تاريخ» الظاهرة ـ البعث ـ واعتبره الظاهرة في كليتها . فتجاهل بذلك الجوانب الاخرى من الظاهرة والقاها في ركامات مظلمة ، وطمر حاضر الظاهرة المتطور الحي . لقد ركز على بعض سلبيات الحزب، التي لم يتردد ازاء نقدها وتجاوزها بجراة نادرة ، ونسي الزميل ان هذه السلبيات (طبيعية) في ظروف قومية معقدة وذات طابع استثنائي ، تميز بتداخل النضالين القومي والطبقي في آن واحد.

ان بحث الحزب عن الجوانب السلبية التي تعرقل مسيرته ، وتجاوزه المستمر لها ، دليل على قدرته على بناء نفسه ، وعلى نحو ديناميكي خلاق .

٢ ـ ان الزميل قد رفض «معطيات» قائمة ، هي تاريـــخ وافكار ودور الاحزاب ، وحاول اضفاء صفات معينة ، لا تمت الى هذه الظاهرة بصلة ، او انها من مخلفات فترات ماضية ، مستهدفا الوصول الى نتيجة حاسمة : الغاؤها ومن ثم ، بروز المبرر الوحيد

لدعوته لانشاء حزب «وحدوي جديد» . وهذه النزعة ، ليست ذاتية فحسب ، بل هي جوهر الموقف المثالي على الصعيد الفلسفي، حيث لا يجد للوجود ومعطياته كيانا وصفات (مستقلة) بل هي تخضع لمزاج (عقل) ما وتقلباته ودرجة وضوح رؤياه .

٣ ـ ان رفض الزميل للاشكال التنظيمية السائدة ، وتقديمه مشروعا ، ساذجا وغير واقعي ، يدلل على فقدانه تلك الارضية الخاصة ، التي لا تقتصر صلابتها على ترديد الافكار الجيدة ، بل تعينه على تحليل وتخريج نتائج وافكار تتجاوزها او تكملها ضمن وحدة فعل جدلي . فالحزب «الوحدوي الجديد» هو مسالة «امكان» وليس مسالة «ارادة» فحسب ، كل مناضل يطمح في نضوج حزبه وتطوره وتجاوز سلبياته . ولكن هل بالامكان ؟ الانسان ، بطبعه ، يبحث عن الافضل ، ولكن المناضل ، وان كان يطمح في تطوير حزبه ، الا انه غير مستعد بالمرة لتوريط حزبه ، وبالتالي طبقته او امته ، في مغامرات خطيرة ، ركضا وراء أحلام لا تمتلك القدرة على مزاوجة الواقع . ما هي امكانيات بناء حزب «وحدوي جديد» ؟ انني أود ان اخبرك بأن هذه الدعوة ليست جديدة ، لقد وئدت اكثر من مرة ، وخصوصا في العراق ، وآخر مرة طرحت ، كانت بعد عدوان حزيران مباشرة ، اذ نشطت مجموعات مطرودة ومشبوهة من الحزبين الرئيسيين ، حزب البعث والحزب الشيوعي ، داعية الى تأسيس «حزب شيوعي عربي» مجمعا قواعده من روافد الحزبين الرئيسيين وقواعدهما، «لان هذين الحزبين وغيرهما قد تخلفا» ! ولكن سرعان ما كشفت الاحداث عن ارتباط قسم من هؤلاء ، وتخلف البعض الآخر ، السياسي والفكري ، والنزعة الذاتية لمجموعة ثالثة تحلم بأن تستيقظ يوما لتجد نفسها على رأس حزب سياسي . لذلك لم تستمر هذه الدعوة اكثر من شهر .

لماذا تفشل هذه الدعوات ؟ لان دعوة «بلا امكان» لا قيمة لها.

ولكي تكون اية دعوة منطقية، ينبغي ان ترتكز على اسس موضوعية ومعقولة .

ان مجرد وجود حزب البعث العربي الاشتراكي ، حاملا نفس المنطلقات النظرية التي بدات بها مقالتك ، مؤمنا بجميع مقترحاتك بصدد التنظيم «الوحدوي الجديد» يعني انتفاء مبرر الدعوة ، اي خضوعها «للا امكان» واضح لا سبيل لانكاره .

٤ ـ لقد قفز الزميل من فوق الواقع «كما هو» الى ما ينبغي ان «يكونه» . فالبعث والاحزاب الشيوعية العربية ونظام عبد الناصر ، لم تدرس كظواهر اجتماعية لها مبررات تاريخية لن تنتهي الا بانتهائها ، ومن ثم ، فهي تتصدى لمشاكل وقضايا لا بد من حسمها قبل التفكير بإنهائها . ولقد افترض الزميل انتهاء دور هذه القوى دون ان يفسر لنا لماذا انتهت، وعلى نحو علمي ووثائقي؟ اكتفى بقراره المقتضب لينتقل الى الواقع كما ينبغي ان يكون ، الى الاداة الثورية ، كما ينبغي ان تكون ، ونسي انها (كائنة) فعلا في عالم الواقع والممارسة . اعني البعث .

٥ ـ ان الدخول في تعارض مباشر ومزمن مع المنهج الديالكتيكي ، يتجلى بوضوح في رفض اقرار مدلولات التجربة ونتاجات الممارسة اليومية والمرحلية ، والميل الواضح لتصور الاشياء من خارجها ، بتجريدها من علاقاتها ، وعزلها عن تاثير التجربة . وهذا كله يتم عبر اقتيات انعزالي على نتاجات فكر نرجسي وسطي متذبذب . معنى ذلك ان «الذاتية» لم تعد مجرد تطرف في تصورات ميتافيزيقية ، بل اصبحت مرضا خطيرا (النرجسية) فيتهيأ للمفكر الذاتي ان لا شيء يقيني او صحيح ، الا ما خرج من دائرة نشاطه الحدسي والذهني .

٦ ـ ان البدء بمقدمات وفرضيات نظرية صحيحة ، يوجب تخريجات موقفية منسجمة معها ، ومنبثقة عنها ، اذا اردنا المحافظة على الطابع الديالكتيكي لمنهجنا في البحث . اما ان

نتطلق من فرضيات صحيحة ، ثم نصل لنتائج تناقضها فذلك تأكيد واضح على انتهاج خط ذاتي ، يحاول اثبات فرضيات مسبقة . وهذا ما حصل عندما قيّم الزميل الرجعية ، ثم التزم موقفا مناقضا لتقييمه عندما دعا الى التعاون معها «كحد ادنى» في اطار مؤتمرات القمة .

٧ ــ ان ما يميز البحث العلمي عن سائر النشاطات ، انه بحث هادىء لا يعبأ الا بنتائج الممارسة وتلخيصاتها (النظرية) . اما الامزجة والرغبات فتطرح جانبا ، عندما يبدأ المفكر بحثه . الا اننا وجدنا الزميل يجنح الى السخرية من «الاشتراكية المطبقة في خمسة اقطار» وغيرها ، ثم يوجه اتهامات «حدسية» ضمنا وصراحة لقوى الثورة العربية ، دون تقديم دليل واحد . واذا ما كان واجبا الانفعال ، وهذا ممكن ، واحيانا طبيعي ، فيجب ان لا ترتفع حرارة الانفعال لتحرق أفكارنا ، فنضطر للبحث عن اخرى ارتجالية ، بل يجب حصر انفعالنا في حدود موسيقى اللفظ وحماسة الفكرة .

٨ ــ ان الظاهرة التي ندرسها ليست على قدر مطلق من الامكانات او التأثيرات انها ظاهرة طبيعية او بشرية ، وهي ، بطبيعتها ، محدودة التأثير . وعندما نضع الظاهرة بين قوسين، ونسلط عليها الاضواء الساطعة حاملين المبضع ، فيجب ان نرفق قساوة التشريح بتاكيد طبيعة الظاهرة وتاريخها وامكاناتها . اما اذا انتظرنا من رجل وزنه ٧٠ كيلو ان يحمل الف كيلو ، فذلك منتهى الخروج عن اطار المعقول ودخول في عالم «هرقلي» لا معقول، ولا اقول «بيكيتي» حرصا على عدم ارهاقك اكثر بعالم الفلسفة .

ان خطيئة الزميل الكبرى ، هي عجزه عن الاحاطة بالواقع ، بنظرة شمولية نفاذة هادئة . فأخذت الصور والظواهر تختلط في ذهنه وتتداخل ، وعلى نحو مروع احيانا ، فوجد نفسه عاجزا عن ادراك الضرورات والدروس «الحقيقية» المستخلصة من النكبة .

بل انه عمد الى تقديم مشروع متكامل لنكبة قاسية ، قد تكـون ادهى وامرّ من نكبة حزيران .

واني ارجو ان يكون حديثي الاخوي معه ، حافزا لاعادة نظر شاملة .

(تشرين ثاني ١٩٦٨)
نشر في مجلة (دراسات عربية)
العدد ٥ ، آذار ، ١٩٦٩

بعض المصادر :

١ ــ «بعض المنطلقات النظرية» التي اقرها المؤتمر القومي السادس لحزب البعث العربي الاشتراكي .
منشور في كراس مستقل وكذلك في سلسلة «نضال البعث» الجزء السادس (منشورات دار الطليعة ــ بيروت) .
٢ ــ البيان الختامي عن اعمال المؤتمر القومي السادس .
٣ ــ «لودفيغ فيورباخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكيـــة الالمانية» . فريدريك انجلز .
٤ ــ «في سبيل البعث» ميشيل عفلق .
٥ ــ اعداد من مجلة الطليعة السورية .
٦ ــ «الحزب الشيوعي الفرنسي وقضية الجزائر» الياس مرقص (دار الطليعة ــ بيروت) .
٧ ــ الميثاق الوطني للجمهورية العربية المتحدة .
٨ ــ مجلة الطليعة المصرية عدد ٨ ، السنة الرابعة ، اغسطس١٩٦٨ ص ٥٩ ــ ٦٠ .
٩ ــ «ماركسية القرن العشرين» روجيه جارودي (دار الآداب ــ

بيروت) .
١٠ـ «هكذا تكلم زرادشت» فريدريك نيتشه .
١١ـ «نظرة على الوضع الثوري في العالم» ارنستو شي غيفارا (دار الطليعة ـ بيروت) .
١٢ـ بعض المصادر الخاصة .

الفصل الثالث

مصادر تذبذب قيم البورجوازية الصغيرة

ملاحظات ضرورية :

١ ـ ان ادانة الفلسفة السيمانتيكية (فلسفة فقه اللغة) (١) ،

---

١ ـ السيمانتيك : مدرسة فلسفية امريكية ترى ، كما يقول ستيوارت شاز (S. Chase) في كتابه (طغيان الكلمات) ، ان مصائب الناس كلها تأتي من انهم يسيئون استعمال اللغة ، معتقدين ان الكلمات تتناسب مع المفاهيم وان للمفاهيم محتوى واقعيا ... وهكذا نستطيع باصلاح اللغة ان ننقذ المجتمع الرأسمالي من الازمات الاقتصادية ! انظر : روجيه غارودي ، النظرية المادية في المعرفة ، دار دمشق ، ص ٤٤٠ و٤٤١ .

بصفتها رجعية امبريالية مكشوفة ، لا ينفي ابدا الضرورة القصوى (لتحديد) معاني المصطلحات والكلمات التي نستعملها . لقد استعملت مصطلحات معينة بمعان مختلفة ، فنجمت التباسات عرقلت الوصول الى اتفاق في الموقف في احيان معينة ! اللغة، بصفتها اداة تعبير وصياغة الافكار ، تكتسب اهمية خاصة في العلوم (الانسانية) التي لا زالت تفتقد صفة (اليقين) والاتفاق العام المميز للعلوم (الطبيعية) . فتحديد معاني المصطلحات التي نستعملها يساعد على ايضاح الكثير من الافكار ويجنبنا السفسطة والهذر ، رغم اننا (سنتحفظ) كثيرا في اعتبار المصطلحات المستعملة هنا ، وفي جميع البحوث (الانسانية) ، ذات معان شمولية ، مطلقة ، لا تقبل النقاش والنقد . ان جميع المصطلحات المستعملة في العلوم الانسانية ، ينبغي ان تفهم على اساس انها مجرد الفاظ تقريبية ، عمومية ، يمكن توسيع نطاق استعمالها ؛ او تضييقه ، حسب ضرورات البحث ، مع مراعاة ضرورة التنبيه الصريح الى المعاني الخاصة الجديدة المقصودة والتي استعمل المصطلح للاشارة اليها .

٢ ــ لقد اثارت البورجوازية الصغيرة ، بصعودها الى السلطة السياسية في الكثير من الاقطار العربية ، سلسلة من القضايا الهامة التي ينبغي تناولها بالنقد التحليلي العميق . وفي بحثنا هذا نتناول ايديولوجيا البورجوازية الصغيرة ، بصفتها (احد) العوامل الرئيسية المسببة لظاهرة التذبذب (القيمي) المعاصرة ، لكننا سنقتصر ، في بحثنا ، على الجوانب المركزية المتعلقة بالقيم فقط .

٣ ــ ان بحثنا ليس بحثا سايكولوجياً ، او سوسيولوجياً ، كما انه ليس بحثا فلسفيا ، رغم انه يدور ضمن هذه المحاور الثلاث ! ان الاستقلال (المطلق) للعلوم الانسانية يحولها الى علوم تفسر ظواهر غريبة ، تعجز عن اقناع الباحثين فيها بصحة

تفسيراتهم ! لذلك فان الوجه الآخر لاستقلال هذه العلوم هـو (الترابط) والتداخل فيما بينها . هنا نقدم نموذجا حقيقيا لتداخل وترابط علوم النفس والاجتماع والفلسفة .

تبسيطات اولية :

ما هي القيم ؟

القيم عبارة عن مجموعة متبلورة من القواعد (الاوامر والنواهي) والتقاليد والمعايير الحضارية. فعندما نقول عن شخص ما انه (رجل قيم) ، فنعني بذلك انه يتصرف وفقا لقيم محددة في حياته الشخصية والاجتماعية ، بحيث ان اغلب تصرفاته الهامة تخضع لقيمه او تنسجم معها . اما عندما نواجه انسانا يتصرف بلا ضوابط او قواعد ، فيقول عن شيء ما (انه اسود) ثم يتراجع قائلا عن الشيء نفسه (انه ابيض) ، تبعا لمزاجه ، او مصالحه ، او اعتقاداته ، عندما نواجه انسانا كهذا نقول عنه انه انسان بلا قيم، او ان قيمه غير متبلورة ، او انها ، بذاتها ، متناقضة .

الا ان القيم لا تنحصر في اطار العلاقات الشخصية ، او الاجتماعية ، بل قد تمتد الى (الحضارة) : فلكل حضارة (قيم خاصة) (٢) بها ، تميزها عن غيرها من الحضارات . عندما نقول (قيم الغرب) ، نعني بذلك قيم الغرب (الرأسمالي) ، وعندما نقول (قيم الشرق) ، فاننا نعني بذلك ، اما قيم الشرق المتناقض

---

٢ ـ منعا لاي التباس ، سوف نستعمل كلمة (خاص) للاشارة الى كل ما يتعلق بفئة ، او طبقة اجتماعية ، اما كلمة (شخصي) فسوف نعني بها كل ما يتعلق بالفرد من خصوصية وتفرد .

التقليدي ، اي شعوب آسيا وافريقيا ، او اننا نعني قيم المعسكر الاشتراكي . قيم الغرب (الراسمالي) لا ترى تناقضا في اعتبار الانسان مجرد (آلة) ، وعلى العكس من ذلك فان قيم الشرق (الاشتراكي) تتميز باحترام الانسان واعتباره (هدف) كل المشاريع والاهتمامات الحضارية .

القيم والاخلاق

احيانا ، عندما نقول عن انسان ما انه (رجل قيم) نعني ايضا انه (رجل أخلاق) ، فالاخلاق (جزء) من القيم الحضارية السائدة، والتصرف وفقا لهذه الاخلاق يعني احترام القيم والالتصاق بها . لكن الاخلاق لا تقتصر على المفهوم (الضيق) للاخلاق السائد لدينا، اي الاخلاق الجنسية ، بل هي اوسع من ذلك ، اذ انها تعني حوافز السلوك او روادعه والاساليب المتبعة في التعامل مع الناس . فالتطابق بين قيم الانسان وسلوكه اليومي (أخلاق) ، والصدق اخلاق الخ .

مصدرا القيم

هناك مصدران للقيم : **المصدر التاريخي ، والمصدر الذاتي.** المصدر التاريخي يعتبر المصدر (الرئيسي) والحاسم في تقرير وبلورة القيم السائدة ، نظرا لانها حصيلة تجارب الوف السنين ، وخبر عشرات المجتمعات والانظمة . هذه الخبر والتجارب تتجمع لتؤلف قواعد واعراف ومفاهيم سائدة لا يمكن اغفال اهميتها ، او انكار تأثيرها . والمصدر التاريخي للقيم يستمد اهميته من

الطابع (الجماعي) لعملية اكتساب المعرفة . فنحن لا نشاهد في التاريخ الا ما هو متحقق وماض. وبذلك نستطيع تحديد الجوانب السلبية وتمييزها عن الجوانب الايجابية ، ثم تجميع نتائج مشاهداتنا واخراجها على شكل قواعد ومعارف وخبرات ، تكون موجها لسلوكنا الحاضر والمقبل .

لكن سلوكنا الحاضر ، وضرورات مشاريع المستقبل ، تضعنا ازاء عجز واضح عن الاجابة على جميع الاسئلة ، او عن حل جميع المعضلات التي نواجهها ، اذا ما اعتمدنا فقط على خبر الماضي وقيمه . ان (الحاضر) و(المستقبل) شيئان جديدان ويحتاجان لحلول وقواعد جديدة . في هذه الحالة نبدأ في عملية خلق وابتكار للقواعد والاعراف التي تناسب عصرنا وحاجاتنا وعلاقاتنا. بتعبير آخر : حاجاتنا المتنوعة والجديدة تضعنا ازاء ضرورة (بلورة) قيم جديدة تضاف الى ما هو (ايجابي) من قيم الماضي . وبذلك تصبح القيم في حالة اغتناء ونمو وازدهار كلما تقدم الزمن .

اما (المصدر الذاتي) ، فانه وان كان تأثيره لا يظهر الا عندما تتجمع الخبر الفردية على مر الزمن لتصبح قوة هائلة ، يلعب دورا آخرا بالنسبة للانسان . فالانسان عندما يولد يكون (بلا قيم) ، اي مخلوقا (خاما) لم يتهيأ بعد لفهم العالم ، وبالتالي ، عدم التصرف وفقا لقيم محددة . لكنه مع نموه الجسدي وتفتح آفاق وعيه وتوسع ادراكه ، يأخذ في التعامل مع القيم التي يجدها في محيطه العائلي والاجتماعي . يبدأ اولا ضمن عائلته : فيكتسب الطريقة التي يتعامل بها أفراد العائلة ، ويتعلم لغتهم وقواعد سلوكهم ، ثم يتوسع نطاق علاقاته عندما يتعامل مع ابناء حيه . عند ذاك (تتحور) قيمه متاثرة بقيم اصدقائه وجيرانه . وكلما توسع نطاق علاقاته ، زاد وعيه وتعمقت قواعد سلوكه ورسخت. لكنه في فترة التحول ، وهي غالبا فترة المراهقة ، يبدأ بالنظر الى

القيم الموروثة نظرة جديدة : هل هي جديرة بالاحترام ؟ وهل هي صحيحة ؟ وهل فيها جانب ايجابي ؟ وهل تنسجم مع مطامح الانسان في هذه الفترة .

هذه الاسئلة تشير الى بداية مرحلة جديدة في حياة الانسان هي مرحلة مواجهة القيم ونقدها واختيار قيم ربما تكون متعارضة مع القيم الموروثة والرسمية . ومرحلة رفض القيم والبحث عن قيم جديدة بديلة ، لا تنتهي في حياة الانسان ، اذ انه يقضي حياته وهو (يتعلم) ويستفيد من تجاربه وتجارب الآخرين ، وبالتالي ، فان قيمه تستمر في الاغتناء والتطور والارتقاء .

ولكن ما ينبغي تاكيده ، باستمرار ، هو ان هذا التطور الصاعد له سمة اجتماعية . اي انه ينشا وينمو في مجتمع (واقعي) ، وليس ثمة قيم او افكار تقذف الينا من مصدر (غير انساني) ، او غير اجتماعي .

نسبية القيم :

عندما نقول بان القيم الحضارية للغرب تسود الحياة الاجتماعية هناك ، وهذا يعني النظر الى الانسان (كآلة) ، عندما نقول ذلك لا نعني ابدا ان الذين يخضعون لها يعتقدون بصواب هذه القيم، بل فقط اردنا الاشارة الى انها (قيم سائدة) ومسيطرة. فهذه القيم سائدة (الان) نتيجة قدمها ، او ارتباطها بالبناء الفوقي للنظام الانتاجي المسيطر ، وهو النظام الراسمالي القائم على (الربح) واحتقار انسانية الانسان . لكن توجد ، في الغرب ، الى جانب القيم السائدة ، قيم اخرى (غير رسمية) ، هي قيم (المستقبل) وتجسدها حركات الشباب الثورية والاحزاب العمالية واليسارية . وهذه القيم تمجد الانسان وتضعه هدفا (مركزيا)

لجميع نضالاتها ، وتسخر كل الابتكارات والوسائل المتوفرة لدينا لخدمته .

اذن ثمة تصارع بين نوعين من القيم : القيم **السائدة** السائرة نحو الاضمحلال ، **والقيم الجديدة** ، الفتية ، السائرة نحو النمو والسيطرة . وهذا التضاد يجعل من المستحيل ان يستطيع اي من النوعين التأثير على جميع الناس في هذه الفترة ، بل ينقسمون ويخضع كل قسم لمؤثرات قيمية خاصة . **من هنا ياتي المصدر الاول لنسبية القيم ، وهو المصدر الاجتماعي العام . اما المصدر الثاني ، وهو المصدر الفلسفي ، فانه يكشف عن حقيقة ان قيمنا (ناقصة) ، وتبقى ناقصة (دائما) ، وان على الانسان سد هذا النقص والاقتراب شيئا فشيئا من الحقيقة الاكثر كمالا .**

هنا نجد ان قيمنا لا تكفي للاجابة على جميع الاسئلة ، او حل ما يواجهنا من المعضلات . فتتكدس بذلك خبرات جديدة وقواعد مستحدثة لتضاف الى ما هو صحيح وايجابي من قيم الماضي . والمصدر الفلسفي ، بقدر ما هو ظاهرة (خاصة) ، اي فئوية او طبقية ، فانه ايضا ظاهرة (شخصية) ، نظرا لانه نتاج نشاط الافراد في معاناتهم الصميمية اليومية والفردية . ان ما هو صحيح بالنسبة (لي) ، قد يكون خطأ بالنسبة (لغيري) ، تبعا للتجارب الخاصة والشخصية لكل منا ، والمصالح التي يمثلها (اجتماعيا) ، والنضوج الذي يتمتع به . وهذه المسألة هي مسألة تقرير صحة ، او عدم صحة ، قيم معينة .

مطلقية القيم :

واذا كانت القيم (نسبية) ، كما قلنا ، فهل يعني ذلك انها ليست مطلقة ؟ كلا : **فالقيم (مطلقة) و(نسبية) في نفس الوقت** .

وليس في ذلك تناقض ابدا : فعندما تتكون لدينا قناعة بصدد فكرة معينة ثم نبدأ بالتصرف وفقا لهذه القناعة ، نكون قد امتلكنا (قيما مطلقة) في تأثيرها (الآني) . اننا نتصرف وفقا لقيمنا في الاحوال (الاعتيادية) ، ونصر على الالتزام بها تحت تأثير اشد الظروف قساوة ، وهذا واحد من مقاييس تطورنا الحضاري والانساني الرئيسية ؛ والذي يمنح قيمنا صفة المطلقية . لكن صفة المطلقية خاصة بي ، بصفتي منتميا لتيار اجتماعي خاص ، اي انها مطلقة بالنسبة لي فقط ، اما بالنسبة لغيري ، بصفته منتميا لتيار معارض ، فهي (نسبية) . هذا جانب ، اما الجانب الآخر ، فصفتها المطلقية ليست نسبية بالنسبة لغيري (الان) فقط ، بل هي نسبية بالنسبة (لي) في (المستقبل) ايضا . اذ ان تجاربي وخبراتي تعلمني اشياء جديدة ، وتدفعني لتغيير الفكرة (الاولية) ودفعها نحو (الاكتمال) بعد اكتشاف نقصها اثناء الممارسة . اذن الفكرة التي كانت مطلقة بالنسبة لي في فترة معينة تصبح في فترة اخرى نسبية .

الانتهازية القيمية :

اذا كانت القيم تتميز بهذا التنوع في (صفاتها) والازدواج الديالكتيكي في (طبيعتها) ، فهل يعني ذلك التصرف بطريقة انتهازية ؟ اي ان (نبرر) كل تصرفاتنا الخاطئة على اساس ان القيم (نسبية) .

احيانا يتصرف الانسان بطريقة خاطئة تتعارض مع قيمه ، لكنه ما ان يناقش حتى ينكر انه اخطأ ، وعندما يواجه بأن سلوكه يتناقض مع قيمه ، يجيب بأن قيمه نسبية ، او ان القيم مرنة وتحتمل تفسيرات كثيرة . في هذه الحالة نكون ازاء قضية

(شخصية) معقدة . فنحن ، احيانا ، نعجز عن تحديد مدى جدية التبرير الذي يقدمه البعض لتصرفاتهم الشخصية . وكل الذي نستطيع القيام به هو اعطاء حكم على تصرفاتهم ، بالاستناد الى القيم السائدة ، او المشتركة . فنقول انه خاطيء لانه يتعارض مع القيم السائدة ، او لانه يتناقض مع القيم (الخاصة) المشتركة بين الشخص والجماعة التي ينتمي اليها في المجتمع .

اما الشخص نفسه فانه ما ان يستغل بطريقة انتهازية (نسبية القيم) لتبرير اخطاءه وانانياته ، حتى يبدأ بالاحساس بالازدواج والقلق ، وبالتالي ينحدر الى مستوى سيء لا يحسد عليه . لان الازدواج والاحساس المكثف به يشكل سرطانا رهيبا يبتلع الانسان ويفقده الثقة بالنفس ، وبالتالي ، يحول بينه وبين التصرف السليم مع الآخرين . ان مصدر مأساوية الكثيرين هو ادراك التناقض والازدواج الذي ينخر داخلهم ، وعدم القدرة على ايقاف هذا التهدم الدائم لمكونات الاستقرار والثبات الشخصي . ومهما كانت قابليات الانسان وقدراته ، فان فقدان الثقة بالنفس ، وبتجلياتها السلوكية ، يهدر هذه القابليات ويعطلها ، ان لم يحولها الى قدرات تخريب . بعد هذه (التبسيطات الاولية) الضرورية ، ندخل صلب الموضوع ، بالاجابة على سؤال هام .

الكيفية التي يواجه بها الناس القيم

بالتدريج ، ومع نمو الوعي (الشخصي) على الاصعدة الحزبية والنقابية والاجتماعية والشخصية ، يواجه الانسان مشكلة القيم . اذ انها تبقى كامنة وغير ذات اهمية ما دام الانسان (بدائي) الوعي ، او تغلب عليه سلبية اجتماعية وفكرية تحول دون تساؤله وبحثه

عن اصل القيم وجدواها . لكن المشكلة تبدأ ، على نحو محسوس ومباشر ؛ اثناء الطفولة المتقدمة ، عندما يبدأ الطفل بالتساؤل عن النجوم والكون وطريقة الخلق ، فيفاجأ (بتحريم) الاجابة على اسئلة ميتافيزية معينة ، (من خلق الله ؟ مثلا) . وهذا التحريم، بحد ذاته ، يدفع لطرح اول تساؤل ساذج ، غامض ، عن طبيعة القيم التي تحرم وتحلل على نحو غير مفهوم غالبا للاكثرية الساحقة، فالنتيجة الطبيعية لجواب الام او الاب التحريمي هي ان يتساءل الطفل : (لماذا التحريم ؟) . ذلك واحد من ابرز اشكال التحدي التي تواجه ، في وقت واحد ، الطفل الذي يرغب في اكتشاف ومعرفة كل شيء ، والقيم التي تحرم الاجابات المتعارضة مع التقاليد الدينية .

الا ان التساؤل يستمر ، حتى وان رضخ الطفل ظاهريا للتحريم ، بل ان التساؤل يتشعب باستمرار ، ويزداد تعقيدا وغموضا . فبالاضافة الى الاسئلة الدينية ، يبدأ الانسان بطرح اسئلة فيزيولوجية ـ سايكولوجية ، في مراحل المراهقة : «لماذا يحرم المجتمع اشباع الرغبات الجسدية ما دامت جزء من الطبيعة البشرية ؟» ، وهذا السؤال يمتاز عن الاسئلة الدينية الميتافيزية بانه يتعلق بقضايا (حسية) ، ملموسة ، تحرك الانسان (مباشرة)، وتعصف به بطريقة لا ارادية غالبا ، بالنسبة للمراهق طبعا . لذلك نجده يستسلم لرغباته الجسدية الممنوعة اجتماعيا ودينيا ، فيتعامل مع النساء خارج اطار العلاقات (الشرعية) ، رغم انه يدرك ان فعله تحدٍ تام لما هو سائد ؛ وقد يترتب عليه عقاب ، او على الاقل ، استنكار اجتماعي .

في هذه الفترة يواجه الانسان ابشع مقاومة من قبل القيم لميوله (الفطرية) ، التي تعصف به بقوة ، فيدخل في تجربة ذاتية عملية يحاول عبرها التوفيق بين القيم السائدة وميوله الفطرية ، لكنه ما ان يفشل ، وهذا هو الوضع الغالب ، ويجد ان ميوله لا

يمكن اشباعها ضمن القيم السائدة ، حتى يخلق لنفسه عالما (سريا) ، خاصا ، منفصلا عن المجتمع ، مخترعا قيما جديدة تنسجم مع ميوله الفطرية ، اضافة (لاحترامه الرسمي) للقيم السائدة وتصرفه ، غالبا ، في اطار علاقاته العلنية ، وفقا لها ! او انه في حالات أقل يرفض القيم السائدة ، ويتمرد عليها فوضويا ، مستسلما لميوله ، فيضطر آنذاك (لبلورة) قيم جديدة يسند بها ممارساته التلقائية . وبخلاف النموذجين السابقين نجد المناضل (المحترف) هو الوحيد ، اجتماعيا ، الذي يتمتع بتوافق نسبي بين ممارساته وقيمه . لنستعرض كل من هذه النماذج الثلاث .

الانسان المزدوج القيم

عندما يعيش الانسان عالمان منفصلان : متناقضان ، شخصي وعام نجد ان مشاكله غاية في التعقيد والحساسية ، اذ ان الخضوع لتأثير نمطين متناقضين من القيم ، يفترض قدرة (استثنائية) على التمييز بين القضايا (الثانوية) التي يمكن التساهل والمرونة معها ، والقضايا (الرئيسية) التي لا يمكن التساهل في اطارها . بتعبير آخر ، ينبغي على الانسان ان يحدد مجموعة هائلة من القضايا : مع من يمارس قيمه الشخصية ؟ مع من يمارس قيمه الخاصة او العامة ؟ متى يرفض القيم العامة ؟ كيف يرفض القيم العامة والخاصة عند تعارضها مع قيمه الشخصية ؟ هل من الممكن التخلي عن القيم الشخصية احيانا؟.. الخ . ان صعوبة تحديد واعطاء اجابة على هذه الاسئلة ، تكمن في ان طبيعة القيم (انتقالية) و(دائمة) في نفس الوقت ! انها انتقالية بمعنى ان تجددها امر محتوم ، لكننا نواجه احيانا صعوبة

قائلة : متى نرفض القديم ونلتزم بالجديد ؟. وهي (دائمة) بمعنى انها تنطوي على عنصر مشترك ، يتجاوز مراحل عديدة ، وعلى قضايا لا يختلف حولها اغلب الناس ، كأن نقول (المحبة امر ضروري) ، فتصبح الصعوبة هي صعوبة (تحديد) طرق التعبير عن المحبة ، او الوسائل المستخدمة لاسعاد الناس .

هذا التشابك في قضايا القيم ، وهذا التغيير السريع الذي يطرأ على جوانبها ومضامينها ، يترك الانسان حائرا ومترددا ازاء اختيار الطرق والاساليب . لقد ضاعت معالم الصورة امامه ، واختلطت قيمه الشخصية والعامة والخاصة ، واصبح من الصعب جدا عليه التمييز بين النمطين المتباينين . وهكذا تبدا ازمة ضياع حقيقي ، بالنسبة للبعض ، حتى ان مشكلتهم الجوهرية تصبح (مشكلة القيم) ! فيخيل اليهم ان قضايا العالم التي ينبغي حسمها تتلخص في قضية القيم وصراع الانماط المتباينة منها ، والتي يفسر اصلها ، بصورة خاطئة ومضللة ، بفكرة (صراع الاجيال) ، كما اخذ هربرت ماركيوز يروج منذ فترات .

انه انسان حائر تماما : فعندما يجد نفسه ازاء ضرورة القيام بفعل محدد ، واتخاذ موقف ما ، من قضية معينة ، تعتلي وجهه الحيرة القاتلة : كيف اتصرف ؟ وفقا لقيمي ، وعند ذاك ساخسر المجتمع ؟ ام وفق قيم المجتمع ؛ وعند ذاك ساخسر ذاتي وتميزي الحضاري ؟ المفاضلة بين النمطين تلقيه في دوامة قاسية؛ لا تنجلي في الحيرة قبل الاختيار فقط ، بل تبرز بصورة واضحة اثناء وبعد الاختيار ! فحتى اثناء انجاز الفعل ، يعتريه القلق وعدم الثقة ، اما بعد انجازه فانه يستسلم لنوبات ندم مر واسف لعدم اختيار الطريق او الشيء (الآخر) .

الانسان العدمي (٢) القيم :

اما في الحالة التي يستسلم فيها الانسان لميوله الفطرية ، رافضا القيم السائدة ، فانه ، كما قلنا ، يضطر لخلق اساس (شخصي) بحت لسلوكه ، وهو بالطبع خلق قيم . فالسلوك ، دائما ، سلوك قيمي ، لا يوجد سلوك لا تسنده قيم . وكما ان (اللا ايديولوجيا) ، اي الانتقائية ، المميزة للبورجوازية الصغيرة ، هي ايديولوجيا ، بكل ما في هذه الكلمة من معنى ، فان(اللاقيمية) المميزة للتمرد البورجوازي الصغير النهلستي هي (قيمية) تعكس الاصل الايديولوجي الانتقائي .

لكن قيمية التمرد النهلستي قيمية (استلاب) ، اي ضياع ، فلئن كان الفرد المزدوج القيم يعيش حالة حيرة وقلق ناجمتين عن اختيار احد احتمالين ، او احتمالات ، فان المتمرد يعيش حالة رعب وانسحاق تامين ازاء المجتمع والوجود ، يعبر عنهما بتطرف جنوني انتحاري ، يعدم الاشياء والخطوط ، ويشير الى امر واحد فقط : فقدان اليقين الذاتي ! اننا عندما نرفض القيم السائدة ، مرة واحدة وبمجموعها ، نواجه فراغا قيميا لن يستطيع ابداعنا الشخصي التعويض عنه . ان القيم نتاج عملية تاريخية (متدرجة)، يشترك فيها ملايين الناس وكثير من النظم ، فتحمل المياسم المشتركة لتلك النظم ولأولئك الناس ، والتي تمثل الاوجه المتنوعة

---

٣ ـ النورية العدمية ، او النهلستية ، تيار فلسفي ـ سياسي يرفض كل شيء ، وبأسلوب فوضوي ، لكنه لا يقدم (بديلا) لما يرفضه ، ويكتفي بالاصرار المطلق على الرفض . عبر هذا التيار عن نفسه ، سياسيا ، بسياسة الارهاب والاغتيالات واحتقار التنظيم الحزبي الجماهيري والاستعاضة عنه بالمغامرات الفردية البطولية .

للتطور الانساني والحضاري . ناتي نحن الى الوجود لنتنفس من هواء هذه القيم الى حد اننا ننسى مصدر الهواء ! لقد تحضّرنا ؛ بالضبط ، بسبب تراكم حصيلة (قيمية) عبر نظم عبودية ! ليس في ذلك تناقض ، (فعبودية) النظم قد دشنت البدايات الاولى لتطور نوعي في حياة المخلوق الارضي : الانسان .

ان ادانة (الطبقية) ، وبصورة عمومية مجردة ، لا تكفي ، بل يجب البحث عن النواتج (غير المقصودة) ، اي العفوية ، التي نجمت ، وتنجم ، عن الطبقية الاجتماعية . فالقهر الطبقي يفترض اجبار الناس على القيام بفعل محدد وبطرق مقررة ، وصولا لنتائج مرسومة مسبقا . وهذه (العمدية) المتكررة ، القسرية ، تولد (طبيعة ثانية) لدى البشر ، وهي طبيعة (التخطيط) و(الضبط) ، ومن ثم ، تحقق ارتقاء حضاري محتوم . صحيح ان المستفيد هو (المالك) ، الا ان ما ينتج عن صعيد الخير الانسانية والسلوك الانساني ، هو ارساء (تقاليد) و(طباع) سلوكية جديدة، حضارية ، تعتبر شرطا جوهريا لخلق انسان الغد . وهذه مأثرة غير مقصودة لعبودية النظم القديمة وطبقيتها .

ان انبثاق الحضارات الاولى في ظل نظم عبودية لم يكن صدفة ابدا ، بل انه جاء تتويجا طبيعيا لعملية طويلة بدات بتجميع خبر متناثرة ، وانتهت باستخدام هذه الخبر ، اثناء وبعد انقسام المجتمعات الاولى (طبقيا) ، لاقامة كيان جديد متقدم . كيف كان ممكنا ، مثلا ، بناء الاهرامات من دون عمل عبودي في عصر تخلف وبدائية تكنولوجيتين ؟ ان اقامة الحضارة يمكن ان يتم في حالتين : تقدم تكنولوجي شامل ينجز مهمة بناء الحضارة، او تخلف تكنولوجي يستعاض عنه باعداد هائلة من الايدي العاملة (الاجيرة) او (المملوكة) . وبما ان الحالة الثانية غير ممكنة في النظم غير الطبقية ، فان حضارات ما قبل التكنولوجيا ، كقاعدة ، كانت حضارات طبقية . الا ان ذلك لا ينفي ان بعض الحضارات التي قامت بعد التكنولوجيا المتطورة هي حضارات طبقية ، كالحضارة

الراسمالية .

اولئك الذين اعتقدوا انهم رفضوا القيم السائدة وتخلصوا من تاثيراتها ، نجدهم دائما ، وفي النهاية ، اسرى عزلة ويأس قاتلين ! هذا التعميم يشمل حتى الحركات الثورية (العدمية) التي بقدر ما ترفض (ما هو قائم) ترفض تصور امكانية التقيد بقيم مقبلة بديلة ، كما ترفض تقديم النموذج (البديل) لنظام المستقبل. ان نشاطها السياسي الثوري ليس اكثر من حالة (تفجر عابرة) سايكولوجية ، احتجاجية ، تماما كالميل لارتداء زي جديد ، او القيام بنزهة تبدد السأم . وهذا النشاط (العابر) ، المزاجي ، مبعثه الاعتقاد بأن التحرر يكمن في التمرد ، بصفته حالة مطلقة ، غير ممكنة التعريف او التحديد او التحليل ، يكفي (شعورنا) بالحاجة للتمرد كيما نقوم بفعل التمرد . ثم ما ان يتمردوا ويصطدموا بالثبات (النسبي) للنظام الراسمالي ، حتى تغطي عيونهم غمامات عدمية رهيبة ، تخلق لديهم يقينا بعبثية الحياة ، وفي افضل الاحوال ، عبثية النضال ، فتصبح مهمتهم الوحيدة هي اجترار الاشياء والحياة والايام وانتظار الموت ، تماما كما حدث لاغلبية قادة الانتفاضة الطلابية الاوربية ـ الامريكية التي حدثت في عامي (٦٨ ـ ١٩٦٩) الذين انطفات اندفاعاتهم التمردية فانصرفوا لطقوسهم العدمية ، الذاتية ، الهيبية ، بعد مرور ما يقارب الثلاث سنوات !

العدمي اذ يرفض القيم يجد نفسه (مصدرا) لكل القيم . وبما انه (مملوء) حضاريا بالقيم (السائدة) ، بصورة لاشعورية ، فانه ما ان يتصرف ، معتقدا انه يتصرف بصورة (تلقائية) و(حرة)، حتى يكتشف انه لا زال متأثرا بما هو سائد ، انه لا يزال اسير ركامات الماضي وانماطه المتسربة في الخلايا والحدقات ! وتلك حالة تدفعه للمزيد من التطرف ، وبالتالي للمزيد من رعب اكتشاف انه لا زال يركض في مكانه ، فيضطر في النهاية القاتمة

للاستسلام لما هو قائم ، والانطواء ، منتظرا الموت كاي (ثور) لا هم له سوى مضاجعة (الابقار) !

ومما يعمق ازمته هو ادراكه العميق لمسؤوليته المباشرة عن مجموع افعاله ، فهو (يختار) كل ممارساته (بحرية تامة) ، مدركا الالزامات الادبية والقانونية المترتبة عليها . وبما انه لا يمتلك (يقينا) واضحا وكافيا بصدد قضايا الكون والمجتمع والسلوك الفردي ، فانه يقع ضحية الاحساس بتحمل نتائج آراء او افعال لم يتحقق من صحتها او فاعليتها ! ولو كانت ثمة قناعة تامة بالرأي او الفعل لكان ذلك مخففا لثقل النتائج الناجمة عنهما ، اي عن الراي او الفعل . اما ان يكون الراي بحاجة لاثبات (يقيني) ، والفعل بحاجة للاقتناع بجدواه ، فان ذلك يضاعف حالة تذبذب وسلبية العدمي الثوري ، ويجعلهما (سمتين) ملازمتين للتمرد البورجوازي الصغير العدمي الثوري ، ويتركه اسير خوف من نتائج افعاله التي لا يتحمل احد مسؤوليتها سواه. وهذا بالضبط واحد من الكوابح الرئيسية التي تلجم مبادرات العدمي ، او توقفه عند منتصف الطريق .

الانسان الثوري القيم (في الشرق)

الثوري في (ظاهر) سلوكه مزدوج القيم . اذ انه بخلاف العدمي القيم لا يتجاهل النصل القاتل للقيم السائدة ، والذي ينفرز في تلافيف دماغ المتمرد العدمي ، بل يتصرف على نحو لا استفزاز فيه لهذه القيم ، وان كان موقفه ينطوي على رفض عقلاني ، اي مخطط ، لها في نفس الوقت ، وبصورة شرطية . وبذلك يلتقي مع الانسان المزدوج القيم في الرفض، رغم انه متميز عنه في (جوهر) قيمه واساليبه العملية . ان عنصر (اللقاء) بينهما

هو الرغبة في عدم تخطي ما هو سائد بتمرد لا عقلاني ، لكن عنصر (الافتراق) يكمن في (هدف) كل منهما الكامن خلف تكتيك (عدم الاستفزاز) لما هو سائد ، وفي (منهجيتهما) .

فمنهجية الرفض الخاصة بمزدوجي القيم منهجية (انتقائية)، نفعية ، نظرا لانعدام (الجذر) السياسي ، او لعدم اكتشاف الجذر السياسي ، والتصرف على ضوء دوافع مجردة . لقد اشرنا الى ان مزدوجي القيم لا يمنحهم موقفهم (اليقين النسبي) الضروري للسلوك الاجتماعي ، بل على العكس ، فبالاضافة الى المصدر (الذاتي) لتذبذبهم ، اي منهجهم الانتقائي الذي يتعاملون مع الكون بواسطته ، وبالاضافة الى المصدر (الموضوعي) ، اي الخاصية (المرنة) والتقريبية للمعرفة الانسانية وتعدد الاحتمالات في تفسير الظواهر الانسانية ، بالاضافة الى هذين المصدرين تأتي ردود فعل المجتمع ؛ التي هي ردود فعل سلبية قاصرة تتسم بالعداء والادانة لكل سلوك (غير اعتيادي) ، لتكرس التذبذب ان لم تحوله الى ضرب من القلق الساحق !

هنا نكتشف الترابط المحتوم بين (طبيعة) القيم ؛ وبين المنهج الخاص بالقيمي ، فالفاعلية والتماسك والوضوح التي تميز قيم المناضل وان كان مصدرها تكوينه (الشخصي) ، الا ان هذا التكوين نتاج تربية حزبية ـ سياسية ـ عائلية ـ اجتماعية مشتركة ، اساسها تبن محتوم لمنهج فلسفي ـ سياسي شامل. ان المنهج كالجسر يربط بيننا وبين العالم والاشياء دون ان يفسر لنا العالم والاشياء ، لان ذلك يقع على عاتقنا .

المنهج والقيم

قد يكون ممكنا ، في فترات معينة ، التصرف بصورة

لا منهجية، اي بدون اختيار موقف فلسفي، او كوني ـ اجتماعي، ثابت . لكن التوالي الذي لا ينقطع من التاكيدات العملية على حتمية الاختيار ، تجعلنا نختار موقفا ما : مع من نحن ؟ مع الاشتراكية ام مع الراسمالية ؟ فاذا اجبنا مع الاشتراكية لا تحل المسالة ، بل يطرح سؤال آخر : كيف نعبر عن انحيازنا التام ؟ واذا أجبنا بالنضال الحزبي المنظم ، يطرح سؤال آخر : ما الذي يضبط حركة نضالنا السياسي وتوجهنا النظري ؟ هنا نصل حدا يتنحى عنه الطابع(السياسي) لصالح الطابع (الفلسفي ـ النظري). فكيما نتميز حقا عن التيارات الآفلة ، اي الراسمالية ، ينبغي نسف النظام من جوهره ، اي علاقاته الانتاجية ، ثم الشروع بتصفية بناءه الفوقي «الثقافة ، القوانين، العادات، المؤسسات.. الخ» . وبذلك نواجه قضايا ليست سياسية ، ولا حزبية ، فنضطر لتحديد مواقف ثقافية واجتماعية وسايكولوجية تنسجم مع موقفنا السياسي الذي هو نتاج منهج .

ولناخذ نظرية سايكولوجية (غير سياسية) في ظاهرها ، لنكشف مدى الترابط بين المنهج وبين القدرة على معرفة الامور بصورة عميقة وشاملة ويقينية . فعندما أريد تقرير مدى صحة الفرويدية ، مثلا ، لا يكفي ظاهرها البسايكولوجي ـ الفيزيولوجي، (الفاعلية الرئيسية والمطلقة للباعث الجنسي) ؛ بل ينبغي التوغل الى ثناياها والوصول الى تجليها السياسي : فاذا كان العنصر الحاسم في الصراع الاجتماعي والتكوين الفردي هو الميول العدوانية الغريزية والغريزة الجنسية ، فان معنى ذلك ، سياسيا ، هو ان حل المشكلة يعود للاطباء النفسانيين والمختصين بالتناسليات ، وليس للنظم السياسية ، او نظام الملكية ، علاقة بالامر ! بتحديد اكثر دقة : اننا لن نحتاج الى تغيير النظام الانتاجي اذا اردنا القضاء على مشاكلنا ما دام مصدرها فرديا ، جسديا ـ سايكولوجيا ، هذا من جهة ، ومن جهة ثانية ، اذا

افترضنا ان اصل مشاكلنا يعود الى البواعث الجنسية والعدوانية، المكبوتة وغير المكبوتة ، وصلنا الى طريق مسدود ، فما دامت هذه البواعث (فطرية) ، وما دامت تولد مع الانسان ، فان حل مشاكلنا مستحيل ، لاننا اذا عالجنا البشر الموجودين ، فاننا بحاجة لعلاج الآتين ، وهكذا تبقى الحلقة مفرغة ! وتتحول المشكلة من مشكلة نظام انتاجي ـ سياسي يمكن حلها ، الى مشكلة بيولوجية لا يمكن تغييرها . وهذا هو (الجذر) السياسي الخفي لنظريات فرويد(٤)، وهذا هو نقدنا الاساسي لها .

كيف توصلنا الى اكتشاف الجذر السياسي لنظرية غير سياسية ؟ لو اننا اخترنا منهجا (انتقائيا) ، اي يتعامل مع الظواهر ويفسرها بصورة (تجزيئية) ، كل ظاهرة تفهم بشكل منفصل عن الظواهر الاخرى ، اضافة الى ان تفسير ظاهرة واحدة يختلف باختلاف الوقت ومزاج الفرد ، لو اننا اخترنا منهجا انتقائيا فاننا سوف لن نصل الى اي (جذر) سياسي للمشكلة السايكولوجية ، ولا عرفنا الهدف السياسي الكامن خلف طرح تفسير نظري لها ، وهو حماية النظام الراسمالي . اما اذا اخترنا منهجا (شموليا) ، جذريا ، جدليا ، يبحث عن ترابطات الاشياء الخفية ، ويحاول بلا ملل اكتشاف (ماهيات) الاشياء ، اي جواهرها ، دون الاكتفاء بالوصف الخارجي ، ثم استبعدنا كل ما هو (غيبي) ومضاد للعلم، اذا حققنا ذلك اكتشفنا اشياء مذهلة لا يمكن تصورها في حالة

---

٤ ـ يوجه اسحق دويتشر الماركسي ـ التروتسكي نقدا (ناقصا) لفرويد ، الا انه مع ذلك يكشف ثغرات قاتلة في تحليلات فرويد بالاستناد الى تراث الماركسية الاصيل . وجاء هذا النقد في محاضرة القاها عام ١٩٦٦ . انظر : دويتشر : الانسان الاشتراكي ، دار الاداب ، بيروت ، ترجمة جورج طرابيشي، ١٩٧٢ ، ص ١٠٧ ـ ١٢٦ .

اختيار منهج انتقائي ، فيتوفر بذلك يقين مطلق ـ نسبي يمكن من احداث أخطر التحولات في تاريخ البشر .

هنا تظهر مشكلة القيم بحلة جديدة : اذ ان (طبيعة) قيم الفرد ومدى فاعليتها الحضارية والسياسية لا تقررها ملكاته وقابلياته الفردية فقط ، بل لا بد من منهج جدلي يمنح الانسان قدرة (اضافية) على فهم الامور وتغييرها . ورغم ان قضية المنهج قضية فلسفية ، نظرية ، الا ان حلها يرتبط بالنضال السياسي : فالمنهج الجدلي لا يمكن استيعابه واستخدامه بصورة خلاقة الا عبر الممارسة الثورية المتصلة التي تعيننا ، في وقت واحد ، على فهم (جوهر) الظواهر وليس سطحها فقط ، اولا ، وتغني وتطور وترسخ منهجنا ثانيا . تلك التأكيدات مبعثها (الطبيعة الخاصة) بالمنهج الجدلي والتي منحته القدرة على ارشاد الباحث ـ المناضل وتحديد نطاق العمل وتقرير اتجاهاته الرئيسية . قبل ماركس كانت مناهج البحث (تأملية) يقوم بتأليفها و(ابداعها) شخص منزو في صومعته يفكر بالعالم ، فتأتي انعكاسا تقريبيا لطريقته الشخصية ـ الذاتية في التعامل مع العالم . اي اننا كنا نواجه في (عالم الفكر) بـ (مناهج فكر) ذاتية ، تشوه العالم وتعمق ازمة الوجود اكثر مما تساهم في حلها . بظهور ماركس ولد منهج جديد : ارتباط الفكر بالممارسة ، تسخير الفكر لتغيير الواقع ، تحديد العلاقة بين (العلل) و(النواتج) بعيدا عن الفصل القسري بينهما ، اكتشاف طبيعة العالم (الديالكتيكية) ، رفض التفسيرات (الاحادية) للظواهر الاجتماعية والتاريخية ... الخ ، هذه القوانين والمقولات اكتشفها ، بصورتها العلمية الارقى ، ماركس ورفيقه انجلز ، واغناها بصورة رئيسية لينين (٥) ، ثم واصل

---

٥ ـ لا ننسى هنا (امام الماركسية الروسية) بليخانوف استاذ لينين =

الدرب التلاميذ : ستالين ، تروتسكي ، ماوتسي تونغ ، جيفارا، على صعيد الفكر والممارسة ، وجزئيا : لوكاش والتوسير وغارودي وماندل الخ ، رغم انحراف بعضهم عن (جوهر) الماركسية اللينينية (لوكاش الذي نقد نفسه ، وغارودي اليميني ـ الذاتي الليبرالي).

ولو حاولنا ان نقارن المجهودات الضخمة والكشوف الثورية لدارون ، حول نشوء الانواع واصلها ، والتي استغرقت فترات هائلة من حياته ، بما توصل اليه في مجالات الحياة (الاخرى) ، لاكتشفنا انه مهزوز ، بل وساذج احيانا ! ان ماركس ذاته قد استفاد في تنظيراته من كشوفات دارون البيولوجية ، كما استفاد من الاقتصاد السياسي والاشتراكية الفرنسية والفلسفة الالمانية ، وبذلك حقق بصورة لا تقبل النقاش ما عجز عن تحقيقه جميع من سبقه من عباقرة التاريخ وقادة التحولات الكبرى ، والذين كانوا يرون الواقع من (زاوية واحدة) او (زوايا محدودة) بحكم مناهجهم غير المكتملة . يقينا ان ماركس ليس (اذكى) ولا (اكثر اطلاعا) من بعض عباقرة التاريخ ، لكنه مع ذلك تجاوز هؤلاء جميعا .

هذا التحليل يشير الى حقيقة واحدة وهي : ان المنهج يمنح الانسان قدرة (اضافية) على فهم الاشياء ، وبالتالي تغييرها ، بعد ان يكون قد عرف نفسه . على صعيد القيم يمكن القول بان قيما غير جدلية ، اي غير ديالكتيكية ، هي عموما قيم مكتسبة ، متناقضة ، تحبط مبادرات الانسان وتزرع اليأس فيه ، حتى وان دفعته ، احيانا ، لمغامرات (بلانكية) تعقبها كبوات لا نهوض بعدها.

= والماركسيين الروس ، اننا نحاول فقط الاشارة الى العناصر الفاعلة على صعيدي الفكر والممارسة . ان (منشفية) و(أرثوذكسية) بليخانوف لا تنفي ابدا دوره العظيم ولا عبقريته الفذة .

اذن ، الثوري المحترف في الشرق يواجه نمطين من القيم ، متناقضين ومتداخلين بصورة تقود الى الاستسلام احيانا . فهو كما اشرنا (احتراف) النضال لانه يرفض قيم المجتمع ، التي هي تعبير (اجتماعي) عن علاقات انتاجية ـ تاريخية سائدة ، لكنه ، بنفس الوقت ، غير مستعد بالمرة لقطع (شعرة معاوية) مع المجتمع الذي تفرغ لتغييره بالاستفزاز الطفولي غير المبرر للقيم الرسمية. المسالة مسالة تكتيك : بما ان عملية تغيير المجتمع غير ممكنة الانجاز الا بنضال حزبي منظم (مشروط) بدعم جماهيري واسع ، فان (ثقة) الجماهير بالحزب واستمرار العلاقة الايجابية شرط محتوم لاي مشروع تغيير ثوري . وهذه الثقة ليست مطلقة ، انها مرحلية تحتاج لتجديد واعادة تقييم الاسس التي تستند عليها . وبقدر ما ينمو وعي الجماهير العام ، المرتبط بتطورات موضوعية، نجد ان جليد القيم التقليدية قد اخذ يذوب . ودور الحزب الثوري ، ممثلا بسلوك اعضاءه اليومي ، هو الاسراع في اذابة الجليد دون اللجوء الى استعمال المتفجرات التي قد تؤدي الى طوفان حقيقي يخنق الحزب ويجمد حركته !

ثمة قوتان تساهمان ، بصورة متضامنة ، في تصفية القيم التقليدية : قوة الشروط الموضوعية ، ممثلة في تغيير المناخات الاقتصادية والاجتماعية التي تجبر الناس ، تلقائيا ، على اختيار انماط سلوكية جديدة ومغايرة للانماط التقليدية ، والقوة الثانية هي قوة العامل الذاتي ، والعامل الذاتي هنا هو (الحزب) بصفته المؤسسة القائدة للتحولات العامة الشاملة الجذرية والذي يمارس تأثيرا مزدوجا : بصفته الجهة التي خططت لتحقيق التحولات الاقتصادية والاجتماعية ، اي توفير وانضاج الشروط الموضوعية، من جهة ، وبصفته قوة (الدفع) التي تعجل بإذابة جليد القيم القديمة عبر اثبات ضررها العملي وتناقضها وزيفها ، من جهة ثانية .

وفي المرحلة الوسيطة ، مرحلة الانتقال من القيم القديمة وتبلور القيم الجديدة ، يكون المناضل مضطرا للخضوع لمؤثرين متناقضين : ضغط القيم القديمة المؤثرة ، وضغط اصراره على ممارسة قيمه الجديدة ! وكيما يحسم هذا التناقض يقدم تنازلات حقيقية للقيم القديمة ، في اطار ما هو (غير جوهري) ، اي ما لا يتعارض مع (جوهر) القيم الجديدة ، لكنه ، بنفس الوقت ، يصر على التمسك (بجوهر) قيمه ، لان ذلك شرط (طليعيته) و(ثوريته). وهذه المسلمة العملية لا تحل مشكلة القيم بالنسبة للمناضل ، اذ انه يواجه مشكلتين : كيف يميز ما هو جوهري عما هو ثانوي في قيمه الجديدة ، التي اساسها ومصدرها الوحيدين ليس الواقع المادي ، كما هو الحال مع القيم القديمة ، بل تربيته الحزبية ومدى نضوجه الشخصي . القضية هنا ذات طابع (شخصي) لا يمكن اخضاعه (قسرا) لاوامر الحزب وتعليماته ، وبالتالي ، فان تقرير ما هو ثانوي وما هو جوهري ، قد يخضع لتقديرات المناضل الشخصية (احيانا) ويعجز الحزب عن الزامه بسلوك معين ، خصوصا اذا كان مناضل في القاعدة .

اما المشكلة الثانية فهي تباين درجة تطور وعي المناضلين ، فمناضلي الحزب الثوري ليسوا (كأسنان المشط) ، بل ثمة تدرج وعيوي ، مرافق للتدرج التنظيمي . وهكذا يواجه الكادر (المتقدم) في قيمه تساؤلات رفاقه الذين تجاوزهم في وعيه الاجتماعي ، وبضمنه وعيه القيمي ، ويضطر في احيان كثيرة لتقديم تفسيرات عن تصرفات شخصية بحتة يتصور البعض انها مناقضة لخط الحزب ، او انه يضطر في حالات معينة الى رفض تقديم هذه التفسيرات ، وبالتالي ، يثير حوله موجة من النقد الصادر عن كوادر وقواعد ذات وعي متخلف بالقياس الى وعيه القيمي .

ولكن ، رغم هذه الصعوبات الحقيقية ، فان المناضل كقاعدة افتراضية عامة ، يبقى قادرا على التصرف بطريقة لا تتناقض مع

فيم الثورة والمستقبل ، بنفس الوقت الذي يحافظ فيه على علاقته الضرورية الطيبة مع الجماهير ، متجاوزا الاشكالات التي تنبثق عن الممارسات العدمية القيمية المميزة لليسار الفوضوي المغامر . اما مشكلة اليقين التي تواجه العدمي القيم والمزدوج القيم، فانها تحل بالنسبة للثوري ، ليس بالغاء التذبذب ، لان ذلك مستحيل ، بل بتحويله الى مجرد (ظاهرة) او (حالة) طبيعية ناجمة عن (آلية) عمل الدماغ من جهة ، وطبيعة المعرفة (الانسانية) المرنة غير المطلقة ، والتي لا زالت في بداية عصرها ، من جهة ثانية . اي ان المناضل يتذبذب ويتردد ويقلق ، لكنه ما ان (يرجح) احتمالا معينا بعد دراسة دقيقة ، عقلانية ، حتى يحسم الامر بخوض نضال يومي متصل لتطبيق مشاريعه واعلان قناعاته الفعلية . ولعل أسلوب الحلقات ، او الخلايا الحزبية ، ومبدأ (القيادة الجماعية) ومبدأ (النقد والنقد الذاتي) ، هي التعبير المباشر عن الاسلوب الاكثر علمية لمواجهة حالات التذبذب ونقص المعلومات واهتزاز اليقين لدى المناضل ، والتي يتمكن عبرها من امتلاك (طريقة) فاعلة في مواجهة العالم غير السياسي ايضا ! وهكذا يستطيع ، عبر الممارسة ، التأكد من صحة فرضياته وتحويرها او اغنائها ، فتتحول مشكلته من مشكلة (امتلاك) يقين بصدد افكاره غير المطبقة ، كما هي الحال عند عدمي القيم ، الى مشكلة (متابعة) النضال واختيار الطرق الافضل لبناء الواقع وفقا لفرضياته !

لقد امتلك المناضل نتائج (عملية) بعد تطبيق فرضياته (الاولية) ، واخذ يتصرف على ضوء اليقين المتولد عن التجربة ، محاولا سد الثغرات التي ظهرت اثناء الممارسة في فرضياته . فنضاله ، اذن ، نضال متواصل : فرضيات ثم تطبيق ، ثم اكتشاف نقص (جزئي) ، ثم فرضيات وتطبيق الخ . في غمرة

النضال والممارسة تختفي مشكلة اليقين لتصبح مجرد (حالــة) ضرورية لمواصلة التفكير المبدع .

مصادر التذبذب

ا ـ المصدر الطبقي لتذبذب القيم :

هناك اتجاه طفولي قاصر يعتقد بأن المصدر (الوحيد) لتذبذب القيم هو الواقع (الطبقي) للبورجوازية الصغيرة ، وهذا الاعتقاد يمثل (نصف الحقيقة) . فالبورجوازية الصغيرة ، بحكم وسطيتها الطبقية والايديولوجية وكونها جسرا بين الطبقات ، تجسد حالة شاذة من جمع المتناقضات على مختلف الاصعدة : فعلى صعيد الملكية تؤمن بالملكية العامة والفردية بنفس الوقت ، موفقة بين اتجاهين متعارضين . وعلى صعيد سياسي تدعو الى ايقــاف الصراع الطبقي وانهاءه ، ما ان تصل السلطة ، ليس بحله جذريا، بل بعقد صفقات (حبية) ، توفيقية . اما على صعيد القيم ، فانها تقع تحت ضغط انماط متعددة من المؤثرات :

١ ـ فهي نتيجة منهجها (الانتقائي) لا تستطيع ان تكتشف (محتوى) القيم السائدة وغير السائدة ، و(جذرها) و(مصدرها) . باختصار ، لا تستطيع اكتشاف (ماهية) القيم بل تلاحظ فقــط (مظاهرها) وتعبيراتها (المباشرة) . وبما ان للقيم محتوى ايديولوجيا بصورة محتومة ، فان جمع قيم متعددة ، مــن مصادر مختلفة متناقضة ، يولد التذبذب وعدم فهم (مصدر) مقاومة التجميــع القسري ، الذي هو تنافر ماهيات القيم المتعارضة .

٢ ـ وبسبب الميل السياسي والاقتصادي للحلول محــل البورجوازيتين الكبرى والوسطى ، ومزاوجتها بين الملكية العامة

والملكية الفردية ، تضطر لمواجهة ضغط سايكولوجيا كل من هذين القطبين المتنافرين : الملكية الفردية تولد (الميل الفردي) الليبرالي، النفعي ، والملكية العامة ، على العكس ، تولد الميل (الجماعي) ، التضامني ، الاخلاقي . وان الاصرار المميز للبورجوازية الصغيرة على جمع الملكيتين ، يقودها باستمرار الى سايكولوجيا متناقضة، متصارعة ذاتيا . تارة يغلب الميل الفردي الليبرالي ، وتارة اخرى يغلب الميل التضامني الجماعي . ولا يحسم هذا الوضع الا بانشقاق وتفسخ البورجوازية الصغيرة ، كطبقة ، واختيار افرادها وفئاتها مواقع سياسية جديدة ، وهذا غير ممكن الا في مراحل عليا من تطبيق الاشتراكية ، او ارتقاء الوعي الاشتراكي .

البورجوازية الكبرى طبقة تمتلك (يقين نسبي) في القيم ناجم ، في جوهره ، عن ايمانها بالملكية الفردية . اما ما نراه من تذبذب القيم البورجوازية الراهن ، فانه يعود الى افول النظام الراسمالي العالمي وتفسخ الطبقة البورجوازية ، بعد انتهاء دورها، بينما كانت القيم البورجوازية قوية وذات نفس يقيني مطلق ابان نهوضها وفتوتها !

٣ ـ وبسبب وضعها (الانتقالي) لا تستطيع البورجوازية الصغيرة ارساء الاسس الضرورية لتكوين تراث تاريخي ضخم فكريا واقتصاديا وفنيا واجتماعيا ، بل تكتفي ، دوما ، (بالعموميات) القابلة للانطباق على كل زمان ومكان ، وهذا مصدر من مصادر فقر ايديولوجيتها . ان هذه الطبقة لا تحافظ على ابناءها حتى النهاية ، بل نجدها تعاني دوما من الانشقاقات والانسلاخات : البعض يلتحق بطبقتي العمال والفلاحين ، والبعض الآخر يلتحق بالبورجوازية الكبرى ، والبعض الثالث يحافظ على وضع وسط بين هذه الطبقات . وفي جميع الاحوال فان الناتج الطبيعي لهذا التفسخ (الدوري) للبورجوازية الصغيرة يحرمها من تكوين تراث عام خاص بها ، كما هي الحال مع البورجوازية

والطبقة العاملة . فتتحول العموميات النظرية الى مصدر جديد للتذبذب ، لانها دائما تؤدي الى الاختلاف في تفسيرها ، عند التطبيق ، ليس فقط بين الفئات الطبقية ، بل بالنسبة للفرد الواحد ايضا ، نظرا لانها (لا تحدد) شيئا اكثر من الشيء الآخر المناقض له !

ولئن كانت هذه المؤثرات الطبقية تلعب دورا رئيسيا وحاسما في خلق التذبذب المميز للبورجوازية الصغيرة ، فانها ليست المصدر الوحيد ، سواء بالنسبة لهذه الطبقة او بالنسبة لعموم البشر .

ب ـ المصدر «التكويني» الحالي للبشر

ان التذبذب ، الذي هو تعبير عن اهتزاز اليقين ، ليس نتيجة (نقص) في المعرفة ، ولا هو مجرد تعبير (معرفي) عن عدم استقرار البورجوازية الصغيرة الطبقي، ولا هو ازمة (تكوين) ذهني متخلف وبدائي ، بل هو ، بالضبط ، مزيج من هذه الامور وامر آخر غاية في الخطورة ، هو الطابع المتغير والنسبي للمعرفة والسلوك الانسانيين. ان تطور (النوع) الانساني لا زال في بدايته، ويتجلى ذلك في ضآلتنا الكونية ، وعجزنا الحالي عن حل الكثير من المعضلات الطبية ، وتخبطنا ازاء فهم آلية عمل الدماغ وعدم امكاننا الاستفادة من الطاقات المعطلة للجزء الاكبر من خلاياه ، اضافة للجهل المطبق ازاء الموجات والاشعاعات المتعددة الصادرة عن جسدنا والتي قد تكون مصدر قوة وارتقاء للنوع الانساني الخ، ان هذه الحقائق تشير الى اننا رغم تقدمنا العلمي والتكنولوجي والحضاري لا زلنا اطفالا بدائيين ، لا يستطيعون اعطاء اجابات (يقينية) بصدد قضايا عديدة ، منها (الحسية) المتعلقة بجسدهم؛

ومنها المعنوية المتعلقة بالمفاهيم والتجريدات المعرفية .

اضافة لذلك فان التجربة ، التي هي اساس خبرنا الاولى ، لا تحل مشاكلنا الجديدة بصورة (مباشرة) ، كما يظن الكثيرون ، بل هي بالضبط ، تمنحنا غنى في معارفنا ، وارتقاء في (آليـة) مواجهتنا للقضايا الجديدة ، يمكننا من التصرف بافق اكثر اتساعا ازاء قضية جديدة كليا ، رغم تشابهها (الشكلي) مع القضيـة السابقة والتي اصبحت (تجربة) . اي اننـا ، باختصار ، عبر التجارب (نختار) منهجا ، او نبلور منهجنا. اننا لا نواجه مشكلتين متشابهتين (تماما) ، بل نواجه مشكلتين تنتميان (لصنف) معين ينطوي في ذاته على تنوع لانهائي .

بل ان البعض يفاجأ بأن اغتنائه بالخبر والمعارف يجرده من القدرة على التمييز ! فالاشياء تصبح ، من جديد ، منفصلة عن (الاضافات) البشرية ، التي هي ضرورة حضارية وتطورية ، ما ان يكتشف هذا البعض ان الاشياء ليست (معطيات اولية) ، اي ليست اشياء خام ، بل هي اشياء متحورة تعرضت (لاسقاطات)الباحثين عبر التاريخ ، فأصبحت مزيجا من (الشيء الخام) و(ابداعـات البشر) . وبذلك يبدأ من (الصفر) في مواجهـة هذه الاشياء ، وتهتز كل ثوابت المعرفة وقواعدها ، فيتصدى لمهمة اعادة التقييم والتعريف والصياغة ، وهكذا يسير على طريق مزروع بخناجـر عدم اليقين !

ويمكن تشبيه مسالة التمييز بين الانماط المتباينة من القيم بمسالة التمييز بين البشر ، فمن الصعب جدا اعطاء وصف دقيق للناس العاديين . عندما نقول «بشرة سمراء وشعر اسود ، وعينان سوداوان الخ» فان هذا الوصف ينطبق على الملايين ، فاي واحد منهم هو المقصود ؟ هذا الواحد لا يمكن تحديده بدقة الا من قبل الشخص المشاهد ، ويمكن ان يكون رجلا غاية في القبح ، كمـا يمكن ان يكون امراة غاية في الجمال ! هنا نصبح ازاء صعوبـة

حقيقية تبدد الاعتقاد السائد لدى البعض بأن (الوصـــــف) الفينومينولوجي (٦) سهل ، ويساعد على الفهم في كل وقت ، ومع كل الناس والاشياء . فاذا كان الامر كذلك مع وصف الناس، فان وصف القيم وتحديدها اكثر صعوبة ، وهي الامر المعنوي المجرد الذي لا تسنده الا قواعد اجتماعية مختلف حولهـــا من جهة ، واساس ذاتي يبحث هو ذاته عن اساس راسخ في عصر نهوض قيم على انقاض اخرى آفلة ، من جهة ثانية .

هذا مظهر الازمة ذاتيا ، اي القضايا التي تواجه الفـــــرد الخاضع لتاثير نمطين من القيم . اما المظهر الخارجي العام ، فان للأزمة أشكالا متعددة : فاذا افترضنا ان الفرد نجح في الاجابة على التساؤلات المثارة ، واستطاع تحديد المتغيرات ومتابعتها ، فانه سيصدم بتساؤلات المجتمع ، فالمجتمع سوف لن يهمل ابدا

---

٦ ـ الفينومينولوجيا : علم الظواهر . او الظاهراتية ، اتجاه فلسفـــي اسسه الفيلسوف الالماني ادموند هوسرل (١٨٥٩ ـ ١٩٣٨) ، وكان يعتقد بأن علينا ان ندرس الاشياء كما (تظهر) في الوعي ، دون ان نعبأ بأن يكون ما ندرسه (اكثر) من مجرد ظاهرة فحسب . وتظل الاشياء التي تفترض وجودها الفيزيقا او اللاهوت او الاخلاق المعيارية ، شائقة من ناحية علم الظواهر سواء اكانت ذات وجود حقيقي من الوجهة الميتافيزيقية ام لم تكن .. وكان هوسرل ، مثـل كانط ، يطمح في اكتشاف (مبادىء قبلية) تتحكم في (العقل) وفـي الطبيعـــة الظاهرية وفي القانون والمجتمع والدين والاخلاق .. الخ ، تلك المبادىء التي ينبغي الا تذهب مطلقا الى وراء ما (يظهر) للشعور ، والتي ينبغي ان تستمـــد ضمانها من (طبيعة) مثل هذه الظواهر (الشعورية) . فالظاهراتية تتعامل مـــع الافكار والمشاعر والمبادىء القبليـــة ، دون القدرة على النفاذ الى الواقـــع (الموضوعي) . وهذا هو الجذر الذاتي ـ المثالي لها . اما سارتـــــر فلقد تاثر بالظاهراتية بقوة .

التناقض البارز في بعض دلالات سلوك هذا الفرد ، الذي هـو نتاج ازدواج القيم ، فعندما يتصرف ، في وقت ما ومع اناس محددين بطريقة معينة ، ثم يتصرف مع آخرين وفي نفس الفترة الزمنية ، بطريقة مغايرة كليا ، او جزئيا ، يساء فهمه ، وتثار تساؤلات تشكيكية حوله ، بل قد يهاجم وينتقد بلا رحمة ! ان المجتمع يهتم (بالتجليات) الظاهرية للسلوك الفردي ، دون الاهتمام بالبواعث والتبريرات الخاصة ! وعلى هذا الاساس فان الانتقاد الاجتماعي لازدواج السلوك ، يضيف عاملا جديدا ضاغطا يكرس التذبذب والقلق وعدم اليقين .

هذه الدائرة المغلقة بإحكام ، والتي تحيط بالفرد الـــذي يعيش عالمين منفصلين من القيم لا يمكن كسرهـــا الا في حالات قليلة ؛ وعبر تجارب غاية في القسوة والتنوع ، وهي غالبا ذات (جذر) سياسي . ان مواجهة المجتمع والتخلص من تأثير قيمه ، كقاعدة؛ لا يتحقق عبر تمرد ورفض فرديين مجردين، بل بالضبط بامتلاك (منهج) ، بتحديد موقف من الصراع المحلي والعالمي الدائر. وهذا موقف سياسي بحت ! ان ممارسة العمل السياسي ، طبعا في معسكر الثورة ، يمنحنا خبرا بعيدة عن السياسة ؛ لدرجة اننا نبدا في اكتشاف (العلة) السياسية حتى لادق مشاكلنـــا الشخصية والذاتية ! والمقصود بالعلة السياسية ، ليس السياسة المباشرة الخالصة ، بل ذلك الترابط الداخلي (الجبري) بين أوجه الحياة الفردية المتنوعة ، وبين المحيط الذي نشأت فيه ؛ والذي هو ، بدوره ، نتاج علاقات سياسية ــ انتاجية ــ تاريخيـــة مشتركة .

عندما كنا اطفالا كانت اسئلتنا تبدأ بقضية الرب لتنتهـــي عندها ! اما الان فان اسئلتنا تبدأ بانفسنا ، مارة بالمجتمع ، لتنتهي بالسياسة . لقد علمت السياسة اجيالا كاملة (الكيفية) التـــي

يفكرون بها ، ومنحتهم الاساس الذي يتصرفون (اجتماعيا) على ضوءه .

العلاقة بين الايديولوجيا والقيم

لئن كانت الايديولوجيا ليست مجرد «منظومة فكرية» بل هي ايضا الضابط الرئيسي للسلوك الاجتماعي والموجه للمواقف والاختيارات الجوهرية، فان ثمةتداخلا قد حصل بينالايديولوجيا وبين القيم في دور كل منهما بالتأثير على الواقع الاجتماعي والسلوك الشخصي . فهل يعني التداخل ووحدة نطاق التأثير عدم وجود فواصل او استقلال بين الايديولوجيا والقيم ؟ واذا كان الجواب بالنفي ، وهو كذلك ، فما هي طبيعة العلاقة بينهما ؟

في كل مجتمع يسود نمط (خاص) من (الوعي الاجتماعي) يحدد نطاقي تفكير وممارسات طبقة اجتماعية او اكثر ، في آن واحد . ففي نطاق الفكر تسود الايديولوجيا بلا منازع وتقرر الاتجاهات الرئيسية لافكار مجموعة من الناس . اما في نطاق الممارسة فان ثمة تأثير مزدوج : تأثير الايديولوجيا وتأثير الواقع، وهذا التأثير ينصب على السلوك الانساني . فالسلوك ، كقاعدة ، يخضع لضابط اعلى ، وهو الايديولوجيا ، عندما يتبدى في صورة علاقات اجتماعية محددة ، لكنه لا ينحصر بحركته بما تقرره الايديولوجيا بصورة مسبقة ، ولا يكتفي بما يوجد من تفسيرات منظرة . السلوك يتعامل مع ما هو (يومي) و(تفصيلي) و(خاص) و(جديد) الخ ، اضافة لتعامله مع ما هو (تاريخي) و(تعميمي) و(عام) و(قديم) . اي انه يدخل يوميا في تجربة (جديدة) تحتاج لتفسير (جديد) ، وبالتالي ، لقواعد جديدة تضاف الى مجموع تراث الايديولوجيا السابقة على السلوك والممارسة .

هنا نجد انفسنا ازاء عملية تفاعل متبادل : الايديولوجيا تقرر لنا الاتجاهات الرئيسية في الممارسة ، والممارسة تكتشف التفاصيل وتستجيب لضرورات الحاضر والمستقبل فتغني الايديولوجيا وتسد ثغراتها التاملية .

التأثير الاول، اذن ، على السلوك ينجم عن الالتزام بايديولوجيا معينة . ولكن ليس كل سلوك اجتماعي مقرر سلفا وفقا للايديولوجيا ، ثمة امزجة وميول وتكوينات الفئة او الطبقة التي ينتمي اليها الفرد . بتعبير آخر ، ثمة السايكولوجيا الاجتماعية التي تؤثر في الكيفية التي يتصرف فيها الفرد ، بل قد تقرر ، احيانا ، مواقفه واتجاهاته الرئيسية ، وهذا هو التأثير الثاني على السلوك . والسايكولوجيا الاجتماعية لا ترتبط ، في جزء منها ، بالبناء الفوقي مباشرة ، وان كان الجزء الآخر نتاج البناء الفوقي ، بل ينشأ هذا الجزء (المستقل) عبر مراحل تاريخية متعاقبة ، ويخضع لتأثير اكثر من نمط انتاج ، حتى يستقر على شكل أمزجة وميول عامة ، ربما تقع تحت تأثيرها اغلب الطبقات الاجتماعية ، ان لم تكن كلها .

بيد ان هذا الاستقلال النسبي الذي تتميز به السايكولوجيا الاجتماعية ليس اكثر من وجه واحد لها ، لان وجهها الآخر ، هو انها مستقلة بقدر ما تكون (عموميات) مطاطة ، أما عندما تصبح ممارسات (محددة) ، فاننا نرى ان ثمة سايكولوجيات اجتماعية وليس مجرد سايكولوجيا واحدة ! كيف حصل أن وصلنا الى مواجهة سايكولوجيات متعارضة كتعارض الطبقات الاجتماعية ، رغم انها ناجمة عن (اكثر) من بناء تحتي ومتعاملة مع اكثر من بناء فوقي ، او مندمجة معه ؟

ان استقرار (ميل) اجتماعي في مرحلة معينة ، وقيامه بدور المؤثر الرئيسي على السلوك الاجتماعي ، لا ينبغي ان يعني ابدا انه يؤثر بدرجة (واحدة) على الجميع ، او انه يمتلك قدرة ذاتية

على الاقناع بمعزل عن الاجبار التلقائي . ان الميل مؤثر وحاسم ورئيسي بقدر ما يحصر نطاق تأثيره في اطار طبقة او فئة اجتماعية ، اما خارج نطاقها فانه ، وان كان له تأثير ، فهو تأثير ثانوي ، او رئيسي لكنه قسري تفرضه طبقة سائدة . اما الفئة الاجتماعية الاخرى ، او الطبقات ، فان لها (ميولا) خاصة مختلفة ، رئيسية وحاسمة عندما تمارس فاعليتها ضمن اطار كيانها ، حتى وان فرض عليها التقيد بميول طبقة اخرى مسيطرة .

لكن صفة (الاستقرار) الاجتماعي في مجتمعات طبقية (وَهم) تبدده الصراعات المحتومة التي تنتهي باستيلاء طبقة اخرى ، او فئة من طبقة ، وفرضها سايكولوجيتها الخاصة على المجتمع ، على الصعيد الرسمي ، وإزاحتها للسايكولوجيا الرسمية السابقة . وهكذا نواجه عالما من السايكولوجيات المتصارعة ، بعضها جديد فتي ، وبعضها الآخر قديم آفل ، بعضها طاغٍ وبعضها متنح [٧].

وعبر هذا الصراع ، ومن خلاله ، نكتشف اننا نتعامل مع ظاهرتين واقعيتين : **الاولى** : بروز ميل عام (مشترك) بين جميع الطبقات المشتركة في الصراع والخاضعة لتأثيرات تاريخية وجغرافية وثقافية واحدة ، نسميه (الظاهرة القومية). وهذا الميل

---

٧ - بخلاف المجتمعات الاوربية - الاميركية يتميز المجتمع العربي بعدم استقرار انظمة الحكم عبر تاريخنا القومي كله . ولم تتجه هذه المجتمعات وفق خط سير (حلزوني) بل كانت تتراجع الى الخلف ، واحيانا تدور في حلقة مفرغة واحيانا تقفز الى الامام . وباستثناء الاستقرار النسبي في زمن الخلفاء الراشدين ، لم نشهد اي نظام استطاع ان ينفرد بفرض سايكولوجيته الخاصة وبصورة نهائية ، لذلك برز اكثر من مؤثر سايكولوجي . وهذا ما قد يفسر ظاهرة التذبذب والازدواج العربية رئيسيا .

يتجاوز المرحلة التاريخية ، منتقلا الى التي بعدها ، منفصلا عن البناء الفوقي الذي كان جزء منه ، داخلا ضمن بقايا جديدة او قديمة لميول اخرى ، مؤلفا ، في النهاية ، جزء من بناء فوقي (ثان) مستقل ، لا يخضع لتأثير البناء التحتي المعاصر له ، ولا يعتبر ، بالتالي ، جزء من البناء الفوقي الناجم عن البناء التحتي .
مع الانتباه الى ان مصطلح البناء الفوقي (الثاني) ، لا يعني ابدا خروجا على مقولة البنائين الاثنين فقط (التحتي والفوقي) المعروفة . بل الاستعمال هنا استعمال (اكاديمي) ، تبسيطي ، تمييزي . نظرا لان ماركس تحدث عن الجزء المستقل من البناء الفوقي والناجم عن عملية تاريخية طويلة . اضافة لذلك فان تاريخنا القومي ينطوي على تراث سايكولوجي ونظري ضخم يدخل ضمن البناء الفوقي الراهن بحيث يصعب القول بأن هذا التراث جزء (ثانوي) ، كما هي الحال في الغرب ، لذلك يمكن استعمال مصطلح (البناء الفوقي الثاني) للاشارة الى هذه الخصوصية الشرقية العربية ، مع التأكيد على ان ذلك لا يلغي مقولة ارتباط البناء الفوقي بالبناء التحتي اذا كنا بصدد تغيير ثوري للواقع ، لان هذا الفصل يعني احباط كل محاولة ثورية بصورة محتومة .

اما **الظاهرة الثانية** الناتجة عن الصراع التاريخي الطويل الذي يغطي مراحل متعددة ، فهي بروز (ميل خاص) ، يؤثر على طبقة اجتماعية واحدة ، او فئة منها ، ينتقل معها والى ابنائها ، مع تغير اطراف الصراع وادواته ، ومع تطور الوعي البشري العام . وهذا النوع من (الميل الخاص) يحافظ على الفوارق القائمة بين الطبقات ويغذي الصراعات الدائرة بينها ، فيدخل ، بذلك ، في صميم اسلحة الصراع ومؤججاته .

ان مفهوم (الشرف) ، وفي شرقنا مفهوم الشرف جنسي ضيق ، يمكن ان يعبر عن الاختلاف الشاسع بين طبقات مجتمع

واحد : فمن المعروف ان الطبقة العاملة والكسبة الفقراء ، تعتبر ان المحافظة على الشرف من القضايا التي لا يمكن التساهل بصددها ، ولا نزال نشهد نحر فتيات ، كالخراف ، بسبب اقامتهن علاقات جنسية غير شرعية . مقابل ذلك ، وعلى النقيض منه ، نلاحظ ان الفئات العليا من البورجوازيات الشرقية ، تتخلى عن هذا المفهوم من الشرف ، ويسري التفسخ في العائلات البورجوازية ، واذا ما وقعت جريمة جنس ، فهي ليست بسبب العلاقات غير الشرعية ، بل بسبب العقد الجنسية ! وهذا الاختلاف يستعمل كسلاح طبقي : العمال والكسبة يجلدون البورجوازية بسياط السقوط الاخلاقي ، اما البورجوازية فانها تنتقص من (تقدمية) العمال بالاشارة الى مفاهيمهم (القديمة) و(الضيقة) للشرف !

تلك الظواهر الواقعية تضعنا ازاء (بناءان) فوقيان احدهما ناجم عن البناء التحتي مباشرة ، في جزءه الاكبر ، والآخر تكون عبر مراحل تاريخية متعددة ، ونتيجة لاستقرار ميول طاغية (تلقائيا) ، وتشكل السايكولوجيا الاجتماعية ، في جزء منها ، واحدا من مكوناته الرئيسية اضافة للتراث النظري والحضاري الشرقي . وعندما يتصرف الفرد ، في اطار علاقاته الاجتماعية غير السياسية ، فانه لا يستطيع الافلات كليا من السايكولوجيا الاجتماعية التي ينتمي اليها ، والتي ترعرع في احضانها ، حتى وان رفضها . فيجد نفسه في تعارض ، احيانا ، مع قناعاته الايديولوجية ، كما يجد نفسه ، في احيان اخرى ، منسجما معها ومقدما لها اسسا جديدة تدعمها ! **من الخطا الفادح الاعتقاد بان الايديولوجيا تقرر (كل) ممارساتنا وتخضعها لها . هناك قطاع في ممارساتنا (شخصي) و(صميمي)** يتمتع باستقلال كبير عن الايديولوجيا ، ويساهم في اغنائها على المدى التاريخي الطويل . وفي الفترات الاولى لوقوع ممارسات (شخصية) و(مستقلة) عن

الايديولوجيا قد تظهر تناقضات وازدواج في السلوك ، لكن استقرار ما هو (شخصي) عبر الممارسة والتكرار ، يؤدي الى التلاؤم الضروري بين الممارسة الصميمية والايديولوجيا ، ليس لصالح الايديولوجيا بصورة مقررة سلفا، لان ذلك يعني (الجمود)، ولا لصالح الممارسة ، لان ذلك يعني (التجريبية) ، بل لصالح التفاعل المتبادل الجدلي بينهما .

هذه العملية التاريخية السايكولوجية الطويلة والمعقدة ، هي ما يسمى بتبلور (الوعي الاجتماعي) ، الذي هو نتاج تفاعل وامتزاج الايديولوجيا الطبقية بالسايكولوجيا الاجتماعية ، وفي هذه التشكيلة تلعب الايديولوجيا دور (الضابط الاعلى) الذي يستبعد من الوعي الاجتماعي كل ما يعيق التطور ويعرقل وصول الصراع الطبقي الى آفاقه الضرورية المحتومة .

واذا كان الوعي الاجتماعي هو مجموع الافكار والممارسات والميول ، واذا كانت القيم الاجتماعية هي القواعد «الاوامر والنواهي»، فما هو الحد الفاصل بينهما؟ اذا اخرجنا الايديولوجيا من مفهوم الوعي الاجتماعي ، وتعاملنا مع السايكولوجيا فقط ، اصبحنا نواجه بعض الصعوبة المنهجية في التمييز ، اذ ان السايكولوجيا الاجتماعية هي الميول والاتجاهات العامة ، اما القيم فهي قواعد السلوك المتطابقة مع هذه الميول والمعبرة عنها ، اذن ، القيم هي الميول في تجليها (التطبيقي) . لكننا اذا اخرجنا السايكولوجيا الاجتماعية من مفهوم الوعي ، وتعاملنا مع الايديولوجيا فقط ، اصبحنا قادرين اكثر على التمييز بين الايديولوجيا والقيم : فالايديولوجيا ، بصفتها منظومة فكرية مترابطة جدليا وضابط ممارساتنا الرئيسية ، هي التي تمنح القيم اساسها (النظري) ومعناها وتقرر اتجاهها . وبتعبير آخر، ان مصدر القيم العامة السائدة في اطار طبقة او مجتمع هو مقولات ومفاهيم الايديولوجيا واتجاهاتها الكبرى الرئيسية .

باختصار ، الوعي الاجتماعي يتعامل مع القيم بطريقتين : عبر الايديولوجيا، وهنا يظهر التأثير الطبقي على القيم واضحا لا خلاف حوله ، وعبر السايكولوجيا ، وهنا يظهر تأثير المصدر (الاجتماعي) للقيم ، بينما يصبح التأثير الطبقي غير مباشر . اما عن اصل استقلال القيم فانه يكمن في تعاملها مع ما هو (آني) وكشفها عما هو (جديد) في جانب منها ، وبالتالي اغنائها للايديولوجيا، اضافة الى ان (التراث) القيمي التاريخي المتبلور في بناء فوقي ثان يعتبر الاساس الثاني لاستقلال القيم .

وباكتشاف هذه الاهمية (الجوهرية) للايديولوجيا في تقرير (مضمون) القيم واتجاهها العام . نستطيع ادراك السبب في (تفاؤل) المناضل والانسجام النسبي بين قناعاته النظرية وممارساته ، وبالمقابل ، ندرك مصدر الحبوط والتشاؤم اللذين يميزان عالمي المزدوج القيم والعدمي القيم .

(نيسان ــ آب ١٩٧٣)

الفصل الرابع

التجليات السياسية للفكر الوجودي

ان ما يميز ايديولوجية البورجوازية الصغيرة ، بصورة واضحة ، هو ميلها الى مزاوجة الافكار والتيارات والحلول المتناقضة ، ليس وفقا لمنطق جدلي علمي ، بل انسياقا وراء حاجاتها الطبقية والسياسية والاجتماعية . بل انها تدخل احيانا في عملية ذاتية ترفض عبرها كل المعطيات والتجريدات التاريخية، لاثبات مشروعية مزاوجة المتناقضات غير الجدلية «ماركوز ، سارتر ، الخ» .

ان الاجابة البورجوازية الصغيرة والبورجوازية على السؤال الرئيسي في الفلسفة «ايهما أسبق ، الوجود ؟ أم الفكر ؟» غير محددة المعالم ، تنتقل من اقرار للفاعلية المطلقة للوجود «فورباخ»، الى «الانفراد» التام للافكار في صياغة الواقع وتنويع اشكاله

«ديكارت ، لايبنتز ، كانت» . لكــــن هذه الاجابات الاحادية ، المتطرفة ، لا تمثل الخط الرئيسي للبورجوازية الصغيرة ، علـى الصعيد الفلسفي ، بل هي مجرد فروع ثانوية ومصادر غـير رسمية .

اما الخط الرسمي العام ، فهو على الرغم من اختلافــــه وتنوعه ، يتمثل الان في تيارين رئيسيين تمايزهما ثانوي :

الاول : التيار الذي يجيب «الوجود اسبق» لكنه يقتات على «ظاهريات الوجود وروحه ، ويتجنب الاقتراب من جوهر الوجود «الفعلي» وليس المتصور او المشاهد . ان هذا التيار يعتقد بأنه قد جاء «ليكمل الماركسية» التي هي «مادية غير مؤنسنة ، وعلينا أنسنتها» (١) ، اي اعطاء المبادرة والارادة الانسانيتين دورا فاعلا في علاقة الموضوع ـ الذات ، وهذا التيار يمثله سارتر الــــذي يلوح رافضا للماركسية والمثالية في نفس الوقت .

الثاني : التيار الذي يحصر ماديته في اطار «المادية الحسية» بالانفصال عن المادية الفلسفية ، اي الديالكتيكية ، فالانسان كائن «قبلي» كان حرا وسعيدا قبل الحضارة ، لكنه كبل باغــــلال الحضارة وكوابحها ، فهو اسير عالم الكبت والقمع ان الراسمالية لا تحل مشاكلها ببناء الاشتراكية ، بل باطلاق الحرية للانسان ، او حسب التعبيرات الخاصة لفرويد ، الانتقال من مبدأ الواقــع «عالم القمع» الى مبدأ اللذة «عالم الحرية وتحطيم الحواجــــز الحضارية » (٢) .

---

١ ـ سارتر ، جان بول : المذهب المادي والثورة ، دار اليقظة العربية ، ترجمة جمال اتاسي وسامي الدروبي . في هذا المؤلف يمارس سارتر نقـــدا للماركسية من منظور بورجوازي صغير نهلستي (عدمي) .

٢ ـ ماركوز ، هربرت : الحب والحضارة ، دار الاداب ، ترجمة مطـــاع صفدي .

ماذا يرى هذا التيار من المشاكل الفلسفية والاونتلوجية ؟ انه لا يتجاوز العلاقات «البسيطة» المشاهدة المحـــدودة «الكبت والقمع الحضاري» ويدخل عالم الواقع من هذه الكوة الضيقة . ان القمع الحضاري هو مشكلة المشاكل ، لذلك ينبغي تحقيـــق الارتواء الجنسي ، الذي عبره فقط يمكن تحطيم هذه الكوابـــح وتحرير الانسان من عقده واستلابه ، ويمنحه الاحساس بالتحرر. اما الماركسية بالنسبة لهذا التيار ، فهي قد اجابت على مشاكل الانسان «الاقتصادية» والسياسية ، لكنها اهملت الجانب الجنسي، الجانب القمعي للحضارة. لذلك جاء هذا التيار ، ممثلا في منظره الاول ماركيوز ليدمج الماركسية التي حددت العوامل «الاقتصادية والسياسية» وحللتهما ، بالفرويدية التي اكتشفت قيمة الغريزة الجنسية واهميتها الرئيسية ، ويخرج بإنسان يرفض كل قمع سلطوي ، راسمالي او «اشتراكي» . ما الذي تشير اليه هـــذه المواقف ؟ لا شك انها تشير الى مجموعة قضايا غاية في الخطورة، خصوصا اذا نظر اليها من خلال نتائجها العملية على الصعيـــد السياسي . لذلك فان محاولتنا البسيطة ، التخطيطيـــة هذه ، للبحث في النتائج العملية والسياسية لآراء سارتر ، سوف تكون غاية في التركيز والايجاز ، كما ان نقد الماركوزية يحتاج الى اكثر من هذا التخطيط . لذلك فسوف نقتصر على سارتر ، مع التأكيد على الترابط الوثيق ، الضروري ، بين نقد السارترية ونقـــد الماركوزية المنطلقتان من اساس ومصدر واحد . وهذا يفتـرض تخصيص دراسة اخرى لماركيوز .

الماركسية وسارتر :

لقد تعامل سارتر مع الماركسية تعاملا انتقائيا : فأولا هـــو

مادي ، لا ينكر الوجود «الموضوعي» للاشياء ، وهنا يظهر تأثره بالماركسية ، لكنه ، ثانيا ، يرى ان لا وجود للعالم بدون الانسان. اي انه ربط موضوعية الخارج «الاشياء الآخرون» بإدراكنا له وتعاملنا معه . فلا فاعلية للوجود الا بالقدر الذي تتبدى فيه على ذواتنا ، بصورة حسية ، غير تجريدية . اما القوانين ، خصوصا الاجتماعية ، فانها غير موجودة ، او غير ضرورية ، وهي وسائل لاثبات فرضيات قبلية . وهنا يظهر القاع المثالي لسارتر . انه يقول «نقطة البداية في الوجودية ، هي الذاتية ، وفي الذاتية لا توجد حقيقة سوى حقيقة كوجيتو ديكارت (انا أفكر ، اذن انا موجود) وهي الحقيقة المطلقة للشعور وهو يعي ذاته» . اما (هيدجر) فيقول : «العالم والذات متكاملان ، والاثنان ليس اثنين لكنهما واحد» . هنا يندمج الموضوع بالذات ، وتضيع استقلالية كل منهما ، التي وجهها الآخر ، اللازم ، المحتوم الترابط. فالذات والموضوع عملة بوجهين : الاستقلال والترابط ضمن الشروط التاريخية القائمة .

هذه المزاوجة بين مادية ماركس الديالكتيكية ومثالية ديكارت وكانت ولايبنتز وفيخته ، تبدو بائسة ومفتعلة ، اذا اخضعت لعملية تحليل ونقد عميقين. فالوجود الخارجي لا ينظر الى علاقته بالانسان (الذات) بمعزل عن التاريخ بل فقط عبر نظرة تاريخية شاملة وخاصة في نفس الوقت فلكي نعرف دور الانسان وعلاقته بالطبيعة علينا ان نبحث في مستوى تطور الانسان الحضاري والاقتصادي والعلمي والتكنولوجي والاجتماعي الخ، وان نعرف نوعية النظام الانتاجي السائدة بمعرفتنا الشاملة هذه نستطيع ان نكتشف ونفسر العلاقة القائمة بين الذات والموضوع ، وبدون هذه المعرفة لا يمكننا الا ان نعطي حكما «قيميا» ومقولات تأملية مجردة لا يدعمها واقع . وفي افضل الاحوال تعبر هذه الاحكام والمقولات والآراء عن موقف فئة محدودة جدا من البشر لا يصح ان تعكس

تجربة البشر الاجتماعية كلها او انها تعبر عن جانب واحد من جوانب ازمة الانسان وهو ازمة الفرد الذاتية .

وما ينبغي تاكيده في هذا الصدد هو ان الوجود تختلف فاعليته تبعا لاختلاف المراحل التاريخية ، ففي مرحلة ما يمتلك فاعلية مطلقة ، العهود البدائية لحياة الانسان حيث كان لا يعرف شيئا يتجاوز حواسه ، وبالتالي تكونت لديه نظرة تتسم برهبة الطبيعة والخوف من فاعليتها لكنه ، اي الوجود ، يفقد هذه الفاعلية (المطلقة) والتأثير الكلي على الانسان كلما تقدم في وعيه وتطوره التاريخي والاجتماعي وتعاقبت انظمة وتكدست معطيات العلم وتطبيقاته «التكنولوجيا» حتى نصل مرحلة يستطيع فيها الانسان ان يصوغ بعض جوانب الوجود وفقا لمشيئته الحرة . لكن مع ذلك يبقى في الوجود ما هو مستقل ، ما هو (قائم في ذاته) (٢) ويمارس اشد الفاعلية على الانسان .

وخلال هذا التعامل التاريخي يكون ثمة تأثير احيانا من جانب واحد واحيانا ، وهذا غالب ، متبادل . فالعلاقة اذن تتركز في «التأثير» القائم بين طرفين وليس في وجود او عدم وجود احد الطرفين بالنسبة للآخر العالم قائم وقبلي وكل شيء فيه قائم في ذاته ابتداء وثمة فرق كبير بين احتيازنا له عبر النضال والمعرفة العلمية والتكنية وبين خلقنا له فنحن لا نخلق الاشياء عندما نتعامل معها بل نكتشفها وبعد اكتشافنا لها ندخل محاولة اعادة صياغة وجود الاشياء وفق مطامحنا وحاجاتنا وقدراتنا الانسانية . بل ان هذه الاشياء المعطاة اي الخام التي كانت قائمة

---

٢ ـ سارتر : الوجود والعدم ، دار الاداب ، ترجمة عبد الرحمن بدوي . يعرف سارتر (الوجود ـ في ـ ذاته) بانه الوجود غير الواعي ، وجود الاشياء والعالم ووجود الظاهرة . ص ٥ .

في ذاتها قد تتحول الى مادة اولية لشيء جديد ليس معطى أولي، لتركيب جديد من ابتكار الانسان .

وهذا بالضبط مصدر الالتباس الوجودي وغير الوجـــودي فنحن لا نمنح الاشياء معانيها او وجودها بتعاملنا معها لانها قائمة وقبلية بل نحاول احتيازها واعادة صياغتها واكتشاف المعانـــي المتضمنة فيها او نستعملها كمواد اولية لخلق تراكيب جديدة .

الناتج الفلسفي الرئيسي لهذه النظرة الميتافيزيقية للخارج واشياءه هي تعدد (حقائق) الشيء الواحد بتعدد المكتشفين ، فما دام اكتشافي للشيء هو الذي يحدد وجوده وطبيعته فـــان الاكتشاف سوف يتأثر بمزاجي وخبرتي وثقافتي ومصالحي ، وبالتالي ، فان اكثر من فكرة سوف تتكون عند الناس عن نفس الشيء الواحد ، رغم انه بقي كما هو ولم يتغير . فاي من هـذه الافكار هي الحقيقية والاكيدة ؟ لا بد وان ينطوي الشيء الواحد على حقيقته الذاتية ، التي هي واحدة منطقيا وعلميـــا فنحن لا نستطيع ابدا الا القول ، في الاحوال الاعتيادية ، ان الماء يغلي عند درجة ١٠٠ مئوية . هذه قاعدة تحكم الماء . اما عندما لا يغلي الماء عند هذه الدرجة ، فان ثمة استثنـاء قد وقع «الارتفـــاع او الانخفاض عن مستوى سطح البحر». اما انطباعاتنا عن الشيء فهي احاسيس فردية ، ذاتية ، تقترب او تبتعد عن حقيقة الشيء ، تبعا لظروف محددة .

ولو ان الامر بقي محصورا في اطار الفلسفة ، لكان ذلـــك سهلا . لكن الفلسفة ، تستعمل ، كقاعدة ، سلاحا حاسما فـــي السياسة . فما الناتج السياسي الاول لهذا التعدد في الافكار عن الشيء الواحد ؟

ان نفي الحقائق الموضوعية في الفلسفة يفضي الى نفـــي الحقائق الموضوعية في المجتمع ، وبضمنه السياسة ، ويحـــول عالم السياسة ، بتفاصيله وقوانينه ، الى مجرد انعكاسات ذاتية

لحركة أشباح في الخارج ، لا يحكمها قانون او اتجاه تاريخي .

عندما نقول بأن الحقائق الموضوعية معدومة ، او انها خاضعة لطبيعة الشخص الباحث والمفكر ، وعندما نقول بان دلالات الاشياء والافكار المتبلورة عنها في أذهان الناس ، هي الاشياء ذاتها ، او ما يمكن معرفته منها ، عندما يحصل ذلك كله نجد انفسنا في محيط لا نهائي من الافكار والتفسيرات والمدارس والآراء والتيارات ، يجرنا الى قاعه المظلم حتما ، ويشل كل مبادرة لاحداث انطلاق جديد وتغيير ما هو قائم .

لقد اصبحنا امام عشرات التفسيرات لظاهرة سياسية واحدة، ولتكن مثلا النظام الراسمالي ، ان الاجابة على السؤال التالي تكشف مدى التضليل والالتباسات التي يمكن ان تقع عند نفي الحقائق الموضوعية : ما هو النظام الراسمالي ؟ يجيب ماكس فيبر ، وهو من اقطاب المدرسة التاريخية الالمانية ، **بان النظام الرأسمالي انعكاس للروح الراسمالية**(٤) . اما ماركس فقد اجاب: **بان الروح الراسمالية انعكاس للنظام الراسمالي ، فلولا وجود نظام راسمالي لما ولدت «روح» راسمالية** . ماكس فيبر ينطلق من مشاهدة «الجنين» او «القطاع» الراسمالي ضمن النظام الاقطاعي، مما دفعه للاعتقاد بأن الجنين «الذي هو بعض سمات الراسمالية الوليدة» نتاج سيكولوجيا سابقة ، او روح Spirt او Geist بينما الواقع هو ان هذا الجنين يتطور وينمو وفقا لحركة داخلية ، موضوعية ، بدات عندما اصبح الاقطاع نظاما متناقضا «اي عندما اخذ التعارض بين قوى الانتاج الجديدة وعلاقات الانتاج القديمة يبرز بصورة حادة» وما ان اصبح النظام الراسمالي

---

٤ ــ فيبر ، ماكس : التاريخ الاقتصادي العام ، نقلا عن د. ابراهيم كبه: محاضرات في تاريخ الاقتصاد والفكر الاقتصادي ، ص ٨٥ .

فتيا ، قويا ، حتى اخذت روحه ، او نمطه حسب تعبير فيبر ، تتبلور وتتضح وتساهم في تقرير اتجاه النظام الراسمالي ذاته .

عندما نقول بان الراسمالية انعكاس للروح الراسمالية ، فان ذلك لا يعني اكثر من حل توفيقي : ليست المسألة تغيير النظام الراسمالي بل تغيير روحه ، حتى يمكن التغلب على مساوئه . فما دامت الروح هي العامل الجوهري في نشوء الانظمة ، حسب فيبر ، فان تغييرها سوف يزيل كل ما هو سيء ويبقي كل ما هو ايجابي . وطريق تغيير النمط ، او الروح هو التربية والتثقيف والقوانين الخ ... اذن العيب ليس في (النظام) الراسمالي ، انما في بعض التبديات العرضية التي يمكن ازالتها دون ازالة النظام. وهكذا تصبح الفلسفة اساسا لموقف سياسي ـ اقتصادي خطير، سمته البارزة اما تقديم الحلول للمشاكل الثانوية «تهذيب الروح او النمط» وانكار المشاكل الرئيسية «التعارض بين قوى الانتاج وعلاقات الانتاج ، اي علاقات الاستغلال الطبقية» ، او عدم تقديم اي حل لانه لا توجد مشكلة ، او ان المشكلة غير مفهومة، وبالتالي، فحلها غير ممكن بالضرورة وتلك حالات من «اللاادرية» (٥) قاسية ورهيبة . ولو اننا اخذنا الموقف الوجودي الرسمي وحللناه ، فان انعكاساته السياسية تظهر كما يلي :

اولا : رفض الحقائق الموضوعية . فليس ثمة قوانين تحكم المجتمع والنظم، وانما ثمة (موقف) انساني ازاء القضايا الرئيسية. فالانسان قادر على التمييز بين الخطأ والصواب وفقا لمقاييسه الشخصية ، التي هي ايضا متنوعة ، ليس بالنسبة للافراد فحسب بل حتى بالنسبة للفرد الواحد . لذلك رأينا سارتر ينتقل من

---

٥ ـ اللاادرية : تيار فلسفي ينفي امكانية معرفة ، او تغيير الاشياء والبشر .

الماركسية ، التي تحالف معها الى الفكر البورجوازي الصغير بصورة (رسمية) ، كما رأيناه ينقد مؤلفاته الرئيسية ، الوجود والعدم مثلا ، لكنه لا يشير بالضبط الى ما تجاوزه خلال مسيرته (٦) . ان هذا الانتقال غير المفهوم ظاهريا يشير الى فقدان المقاييس العامة والمنطلقات المنهجية الضرورية لتكوين موقف عام ثابت نسبيا ، والاستناد الى المقاييس الخاصة ، غير المحددة ، والخاضعة لمؤثرات عديدة جدا ، تبلغ حد الشعور بالانسحاق تحت وطأة التبديات غير المفهومة للعالم ، وهذا ما تجلى بصورة حاسمة اذابت الموضوع الذات في قول كيركجارد «الحقيقة هي الذات» او قول ياسبرز «الذات الانسانية هي الواقع بعينه» .

ثانيا : انثيال الافكار التاملية . ان فقدان المقاييس المنهجية Methodology واعتماد المنهج الذاتي المجرد ، لا يعني الا تداعي الافكار التاملية الفجة . فالمنهجية الذاتية تقود الى ضروب متعددة من الفشل والتراجع والمراوحة ، حتى يتولد يقين ثابت بأنه لا فرق بين الامور مهما تباينت ، يقول سارتر في الوجود والعدم : «انهم يكتشفون في وقت واحد ان كل الافعال الانسانية سواء، وانها ـ بحتمية مبدئية ـ محكوم عليها جميعا بالفشل... **وهكذا يستوي آخر الامر ان أثمل بالشراب في وحدتي او ان اقود الشعوب**» ! وكذلك يقول : «**ما دامت الطرق كلها ستقود الى اللا امكان ، فانه لا يهم اي الطريق نختار لنلقي فيه بنشاطاتنا وفعالياتنا**» . هذا اليأس والسوداوية والتخبط في « عمى الوجود» (٧) يفسر المشروع الوجودي ، او للدقة المشاريع

---

٦ ـ جارودي ، روجيه : ماركسية القرن العشرين ، ص ١٢٣ ـ ١٢٤ ، دار الاداب .

٧ ـ عمى الوجود المقابل الفلسفي لعمى الالوان الطبي .

الوجودية ، التي هي عبارة عن تطلع وتأمل وعزلة وتفرد لا تقدم شيئا لمشاكل الانسان ، لانها اصلا لا تهتم بالحلول بقدر ما تهتم بطرح المشاكل ، وبالقناعات الذاتية المتولدة ، وبالضمير الذي يتعامل معها . اي ان موضوع المعرفة ليس العالم الخارجي ، الموضوعي ، بل مشاعر الانسان وافكاره . والتضحية ، كمثال على ذلك ، ليست وسيلة لتحرير ارادة الانسان وعلاقاته ، بل اختبارا لمدى تحرره من الآخرين وقيودهم ، وقدرته على تحمل نتائج مواقفه الشخصية بتعبير آخر اصبحت للتضحية قيمة ذاتية وهدفا يتجاوز الهدف الذي يناضل الانسان من اجله (٨) .

وحسب فهم بوفوار للتضحية ، يصبح على المناضل ليس النضال من اجل اهداف موضوعة مسبقا ، بل القيام (بفعل) النضال ، بغض النظر عن الهدف او النتائج ، وبالتالي فان العمل السياسي ليس نضال مبرمج غائي ، ايديولوجي ، بل انه توال لا ينقطع من تقديم الادلة على التزام الفرد لقضايا عصره ، منظورا اليها من زاوية الاقتناع بان السياسي يقوم «بفعل ذاتي» بمعزل عن مصالح الجماهير وحركة التقدم . وهذا ما جعل البير كامو يقول : «ان الحرية يمكن ان تدرك بمواجهة الموت ، يستطيع ان يدركها المنتحر او المحكوم عليه بالاعدام» . وهكذا تتحول مسالة الحرية من مسالة ملموسة ، عينية ، يرتبط ظهورها الشامل بتحطيم التعارض الجذري بين علاقات الانتاج وقوى الانتاج في النظم المتناقضة ، الى مسالة ميتافيزية ، عدمية ، لا يمكن احتيازها الا بالموت انتحارا او اعداما !

---

٨ ـ وهذا ما اكدته سيمون دو بوفوار عندما قالت : «كان الانسان دائما في حرب وسيظل كذلك الى الابد» ، ماركسية القرن العشرين ، ص ١٢٤ـ١٢٥ وبذلك قدمت بوفوار للامبريالية اكبر تبرير عندما اعتبرت الصراعات فيزيولوجية!

. اذن ، الموقف الوجودي السياسي موقف «اخلاقي» (٩) اصلا، وبعض تبدياته الموضوعية لا اكثر من تلمس تجريبي للواقع وضروراته المباشرة ، الحسية .

ان الموقف الاخلاقي الوجودي في السياسة ينجم عنه التذبذب والتناقض والحيرة ! وليس موقف سارتر من الحزب الشيوعي الفرنسي ، والحركة الشيوعية عموما ، وموقفه من الصراع العربي - الصهيوني ، الا مثالا لهذا التذبذب المتاتي عن انعدام المقاييس والمنهج الموضوعي . انه يستند فقط على خبرته الفردية وتقديراته لتغير الامور وابعادها ، على احاسيسه الذاتية الدائرة حول «الانا الوحدية» ، وهذا بالطبع يقود الى تاثرات ذاتية غير منسجمة حتى مع الاخلاق الوجودية المجردة ، كما حصل عندما ادان سارتر حرب الجزائر ، وهو موقف تقدمي ، ثم وقف الى جانب اسرائيل في حربها العدوانية ضد العرب عام ١٩٦٧ ، وهذا موقف امبريالي !

وهذا بالضبط ما يجعل الاخلاق الوجودية اخلاقا «صورية» شكلية فتفقد بذلك فاعليتها النضالية وتتحول الى سلسلة من الكبوات الاخلاقية .

ثالثا : **الحرية مفهوم ميتافيزي** : اما مفهوم الحرية ، فانه لا يقصد به الحرية الاجتماعية ؛ اي النضال من اجل تحرير الانسان من العوامل الخارجية ، التي تقمع وتشوه وتستلب ذاتيته ؛ بل تعني حرية الارادة «الفطرية» اي تحرر الانسان من كل قيد وكل

---

٩ - الاخلاقية هنا لا تعني الشيء السائد ، انها مسالة منهجية : فالمنهج الاخلاقي هو المنهج الذي يتوصل الى مواقفه ليس عبر تحليل الواقع الفعلي ، الملموس ، واكتشاف قوانينه ، بل عبر مقاييس الخير والشر والانسانية الخ ، التي هي مقاييس ذاتية غير علمية ولا قانونية .

حتمية ، بغض النظر عن مصدرها الواقعي والتاريخي ودورها في ارتقاء او تخلف الانسان . ويعتقد (ياسبرز) ان مهمة الفلسفة الاساسية تقوم في انقاذ الفرد من الجمهور الذي هو «سقوط الانسانية» ، اما هايدجر فيسمي الجمهور «كائن بلا اسم» ، ثم يضيف مارسيل مكملا تعريف المجتمع والانسانية والآخرون باقتراحه «بأن على الانسان ان يتحرر من تأثير الجمهور الاجتماعي فيما لو اراد السير الى الامام» (١٠) .

لكن سارتر الذي يركز على مفهوم الحرية ، يتعامل معه على نحو اكثر عمقا وتقدمية : فهو ينظر الى الجانب الآخر من الحرية، وهو الالتزام ، (فالحرية هي الالتزام) ، كما ان «حريتنا الشخصية تنتهي عند حدود حرية الآخرين» . لكن هذا الالتزام لا زال مجردا ، بلا منهج عمل او تنظيم ، فهو بالتالي لا زال الابن البار للنظرة الاخلاقية الصورية . ومن الجانب الآخر ، فان سارتر ينظر الى الحرية برهبة «الحرية هي الرعب» فالانسان الحر يتخذ قرارات ويتحمل مسؤوليتها ، وهذا بالضبط مدعاة لقلقه وعدم استقراره . وتعود سيمون دو بوفوار الى النغمة الاخلاقية ، لكنها ليست صورية فحسب بل متطرفة ، اذ تقول بأن «حرية انسان واحد يجب انتكون اعلى شأنا من موسم قطن او كاوتشوك»(١١).

ان الخط العام المشترك لجميع هذه التيارات الوجودية ، فيما يتعلق بالحرية ، هو انها كالاخلاق الوجودية ، حرية صورية، ذاتية ، وجهها الآخر العبودية والاستسلام لمشاعر الخيبة و... والسقوط الاخلاقي ! تبقى الانسان بلا فعل مبدع ، بل ان مجموع

---

١٠ ـ د. الماجد ، عبد الرزاق مسلم : مذاهب ومفاهيم في الفلسفة والاجتماع ص ١٢٦ ـ ١٢٧ .

١١ ـ جارودي ، المصدر المذكور ، ص ١٢٥ .

افعاله لا ينتظمها تصور موضوعي محدد ، كقاعدة، وهذا بالضبط مصدر الحبوط السياسي والاخلاقي الوجوديين على صعيد الممارسة اليومية ، والذي رأيناه في عدم توازن مجهودات سارتر السياسية الضخمة مع الآثار التي تركها نضاله ! أنه نضال يضيع ويتبدد بسرعة! بينما نجد افرادا لا يمكن مقارنة ثقافتهم ونشاطهم السياسي بثقافة ونشاط سارتر ومع ذلك تجاوزوه سياسيا نتيجة امتلاكهم المنهج الموضوعي والنظرة المنسجمة للعالم . ان اللامنهجية بحد ذاتها منهج ، وسارتر صاحب منهج ، لكنه منهج ذاتي ، انتقائي . وهكذا منهج لا يقود الى حل القضايا (جذريا) ، بل على العكس يقود الى ضرب من الضياع والحبوط شديدين وقاتلين !

ان الحرية ليست قضية ذاتية الا بالقدر الذي ينظر الى الذات كوجود اجتماعي ، فليس ثمة حرية مطلقة او فطرية . ثمة حرية اجتماعية فقط ، وعبرها يمكن التعامل مع الحرية الفردية، كظاهرة اجتماعية ، حسية ، يومية وتاريخية في نفس الوقت . فالفرد الحر في مجتمع مستعبد لا يمكن ان يكون حرا الا اذا قطع كل حبال الحياة مع الآخرين وفي هذه الحالة ، فان العنصر الاخلاقي الصوري ، الذي يفترض اتخاذ موقف ، يصبح غير مفهوم ولا مبرر . فالحرية ليست في تجاهل قوانين الطبيعة والمجتمع وانكارها ، بل في اكتشافها وتسخيرها لخدمة البشر وزيادة فاعليتهم . وبقدر ما ينجح الانسان في اكتشاف القوانين الموضوعية وتسخيرها لخدمته، يصبح حرا في اختياراته ومواقفه، ويقضي على «الضرورة العمياء» كما اسمى (لينين) جبرية جهل القوانين الاجتماعية والطبيعية .

فالحرية تنطوي على عناصر ثلاث : القدرة على اكتشاف القوانين الطبيعية والاجتماعية وتسخيرها لخدمة الانسان بحرية اولا ، والتقيد بهذه القوانين ثانيا ، وصياغة بعض جوانب الوجود

وفق علاقات قانونية مبتكرة او مكتشفة ثالثا . هذه هي أوجه الحرية الثلاث : اكتشاف ، تقييد ، صياغة مبدعة . وبدون هذه الاوجـــه المترابطة جدليا وعضويا ، يصبح للحريـــة دورا «ايجابيا» (١٢) مهما اخترنا مواقع النقد والرفض ، وبالتالي يسقط عن الوجودية الطابع النقدي ، السلبي ، المتطرف الذي اختطته لنفسها ازاء العالم .

رغم أخلاقية وانسانية و«شجاعة» النقد الوجودي للعالـــم القائم (١٣) ، الا أنه بقي نقدا فرديا ، محصورا في اطار فئة قليلة جدا من المثقفين التي تعجز بفعلها الخاص عن تحقيق اي تقـدم نوعي في علاقات المجتمع . حقا ان سارتر قد تجاوز ماركس في الاهتمام «الشكلي» بعالم الذات ، لكن هذا التجاوز (التاملي) هو بالضبط مصدر الاستلاب الذاتي الوجودي (١٤) الذي يضاف الى الاستلاب الاجتماعي! اذ ان الاهتمام بعالم الذات، وتجليه المباشر، المبادرة الانسانية الحرة ، لا يتاكد عبر تشريح ومتابعة ووصـف عالم الفكر والروح ، رغم ان هذه العملية الفينومينولوجية ضرورية لتقرير واقع الانسان واختياراته ، بل فقط باكتشاف الارتبـاط الجدلي بين عالم الذات الفردية والاطار الذي نمت فيه ، ومنه استمدت عناصرها الجوهرية . اي باكتشاف الصلات الجوهرية التي تربط ، بصورة مباشرة وأحيانا غالبة غير مباشرة ، عالـــم

---

١٢ ـ اي محافظا على ما هو قائم ومؤيدا لاستمراره ، بعكس السلبية التي هي الرفض والنقد لما هو قائم والتطلع لوضع جديد . ماركيوز ، هربرت : العقل والثورة ، ترجمة د. فؤاد زكريا ، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ، من المقدمـة .

١٣ ـ جارودي : المصدر المذكور ، فصل الماركسية والاخلاق .

١٤ـ الوجودي هنا نسبة الى الوجودية الفلسفية وليس الى الوجود (المعطى).

الذات بمصادره التاريخية والتكوينية. فالذات لا تنشا من العدم، ولا هي ارث ميتافيزي يصل مرتبة المعطى الاولي ، بل هي مجموع الخيرات الفردية والاجتماعية ، السابقة والحالية ، والتي يمكن للفرد الحصول عليها عبر تواصل لا ينقطع بمحيطه . ولكن هذا الارتباط بين الذات والعالم الخارجي اخضع لعملية ثورية ، نقدية من قبل ماركس ، بخلاف المفكرين (الايجابيين) السابقين له . اذ انه لم يقبل استمرار الاستلاب الانساني ـ الاجتماعي ، بحجة ان هذا الارتباط قائم ومكرس ، ونتاج عملية تاريخية طويلة ، بل لاحظ واقعية هذا الارتباط وحجم فاعليته الاستلابية الرهيبة ، فاعلن ان جذر الاستلاب يكمن في العلاقات الواقعية للبشر ، لذلك فان تغيير هذه العلاقات شرط جوهري للتخلص من الاستلاب . وقد لخص ماركس تجاربه الفلسفية في مقولته الخطيرة : « لقد كانت مهمة الفلسفة تفسير العالم ، اما الان فعليها تغييره». وهكذا دخل العالم ، منذ ماركس ، في عملية ولادة نوعية لم يشهد لها التاريخ مثيلا ، بفضل ذلك الدور الفاعل للذات الذي اكتشفه ماركس ورسم أبعاده ، وتحويله للفلسفة من سلاح (ايجابي) ، اي محافظ ، الى سلاح سلبي ، اي نقدي ورافض وتحرري .

فعالم الذات لا يمنح الاهمية والفاعلية بمجرد الاهتمام بالذات والدعوات الاخلاقية ، كما تفعل الوجودية بجميع اجنحتها ، بل بالضبط في اكتشاف (مناخ) عالم الذات وقواه وطبيعته والقوانين الخاصة والعامة التي تحكمه ، وتبادل الادوار في التأثير بينه وبين العالم ، وتحديد الكيفية التي يستطيع بها الانسان ان يكون مخلوقا «مفارقا» اي خالقا ومبدعا ومتجاوزا للواقع الملموس ، وهذا ما فعله ماركس وانجلز ولينين .

وهنا يظهر الدليل الآخر على تذبذب الموقف الفلسفي للبرجوازية الصغيرة : فلولا ذلك الانتقال العظيم للعالم ، بقواه واحزابه وانظمته الى الاشتراكية ، ولولا عدم وجود المنهج العلمي

المستقر لدى سارتر بصفته بورجوازي صغير اصيل ، والذي يجعله دائما في موقف متمايز ، مستقل ، لولا ذلك لما رأيناه (ينجرف) مع تيار الثورة العالمية ، مكتشفا فيه «لحظة» جوهرية من لحظات المشروع الوجودي ، بل هي اللحظة الاساسية فيه ، تلك هي دور البشر الفاعل في تغيير ظروفهم وحياتهم والتخلص من كلما يحد حرية الانسان ويتعس حياته. لكن الجذر الوسطي، الجذر التأملي المتذبذب ، لسارتر ينبعث حالما يجد ثغرة ، ولو صغيرة ، في بنية التيار الثوري العالمي : فتغيير العالم عملية معقدة ، وهي بالتأكيد ليست عملية خلق روائي او تحليل فينومينولوجي مجرد ، بل هي اعادة خلق العالم وفقا لنمط جديد من العلاقات الانسانية . ولو تصورنا ان «٩٨ بالمئة» من حياة البشر قد كانت حياة وحشية ، بدائية ، كما أكد مورجان (١٥) ، وان دخولنا عصر الاعتماد على الذات في العيش لم يتجاوز (٢ بالمئة) من حياتنا ، ولو تصورنا ان الكائن العضوي ليس معطى ثابتا يتناقل محمولاته بالوراثة المجردة ، بل هو مزيج من الوراثة وتأثيرات البيئة ، وهذا ما برهن عليه بافلوف ، ولو تصورنا ان ثمة قيم ومواضعات تكرست عبر آلاف السنين ، وهذا ما وضحه ماركس في نظرته الى بعض مصادر البنى الفوقية التاريخية ، ولو ادركنا ، بالاضافة لذلك ، القوى الهائلة المادية والمعنوية التي تمتلكها القوى العالمية التي لها مصلحة في بقاء العالم كما هو ، لو حصل ذلك لادركنا ضخامة وتعقيد المشروع الثوري الانساني الكبير : تغيير العالم ثوريا .

يقينا ان هذا المشروع يفرض تنازلات عديدة لا يتحملها المنطق الاخلاقي الصوري ، المجرد ، كالمنطق الوجودي ، ولا يفهمها ، بل

---

١٥ ــ د. ابراهيم كبه : المصدر المذكور ، ص ٨٥ .

يعتبرها تشويها للمشروع وردة عنه . والتنازلات المحتومة تخلق التباسات اخلاقية ، ليس لدى البورجوازيين الصغار فحسب ، بل لدى بعض كوادر الاحزاب الاشتراكية فتلقيهم في دوامات التحريفية والانتهازية والليبرالية وتاريخ برنشتاين وكاوتسكي واخيرا جارودي يشهد على هذا الالتباس الاخلاقي .

فالانتقال الى عالم الحرية يفترض مرحلة وسيطة ، مرحلة انتقالية يتقلص فيها دور المبادرة (الفردية) ، وتحل محلها المبادرة الجماعية «مبادرة الحزب القائد» بل وتفرض قيودا قاسية احيانا على البروليتاريا والفلاحين وهم هدف المشروع . بتعبير آخر : ان تغيير العالم ، واعادة خلق أفراده ، الذين هم نتاج أوضاع تاريخية غاية في التناقض والتشويه ، يفترض درجات عالية من المركزية والتوجيه بالنسبة للجماهير ، والديكتاتورية الصريحة والرسمية ازاء الخصوم الطبقيين . وهذا يعني حصول تناقض (ظاهري) بين هدف المشروع الثوري الانساني «خلق عالم جديد عادل» وبين وسائله وأدواته السائدة في فترة الانتقال ، التي هي مركزية بالنسبة للشغيلة ، وديكتاتورية بالنسبة للاعداء الطبقيين. لذلك سرعان ما يقف الحليف البورجوازي الصغير ، منفعلا ، متوترا ، بل متحالفا مع قوى الردة العالمية ، محتجا على الانتهاكات والتجاوزات على الحريات الفردية و(تكميم) الافواه و(قمع) المعارضة باساليب عنيفة ! كما حصل بالنسبة لسارتر بعد المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي السوفييتي .

لم يكن وقوف سارتر ، وهو رمز لطبقة كاملة ، الى جانب الشغيلة منبعثا من ايمان بجدلية الثورة ، بل كان ثمة دافع ذاتي، اخلاقي . والدافع الاخلاقي مهما استمرت فاعليته ، فانه لا يلبث ان يتحول الى موقف آخر . لذلك جاءت الخروشوفية لتعطي للكثيرين المبرر لاختيار موقف آخر . وبالنسبة لسارتر لم ير في التجربة الستالينية الا طابع القمع والدكتاتورية ، واغمض عينيه

عمدا عن الانجاز الكبير لها : اقامة دولة عظمى في فترة زمنية مذهلة !

لولا الستالينية لما وجد الاتحاد السوفييتي بتقدمه الراهن . ولو لم يظهر ستالين لظهر شخص آخر باسم آخر . فالمسألة كانت ضرورة تاريخية لمركزية تامة وحزم وتضحيات . ولا اشك لحظة واحدة في ان ستالين نفسه قد عانى ولو لفترة ، من الالتباس الاخلاقي المذكور ، وتساءل عن مشروعية القمع كوسيلة لعالم الحرية مفروضة وجبرية (١٦) .

ان اساليب ومواقف الذين يعملون ويغيرون العالم غير اساليب ومواقف الذين يتأملون العالم . وهذا هو مصدر الافتراق بين البورجوازية الصغيرة وبين الشغيلة ، كما انه مصدر الالتباس الذي يبدو غالبا في موقفها الاخلاقي المجرد من اساليب القمعية . ولو سلمنا بمنطق سارتر وغيره ، فماذا كان سيحصل ؟ تحالف اغلب الدول الاستعمارية ، او الدائرة في فلكها ، وتدخل مسلح ضد روسيا السوفييتية ، حرب هتلرية ، حرب اهلية ، كساد زراعي ، تدهور صناعي ، انشطار طبقي ، قطيعة وبرود بين العمال وبين الفلاحين ، انشقاقات الحزب البولشفي ، المجاعات، الخ ... هذه الاوضاع لا تتغير بالاساليب الليبرالية، بل بالمركزية الديمقراطية من جهة والديكتاتورية من جهة اخرى في نفس الوقت ، وحسب نوعية الخصم . واي حل آخر سوف يقود الى الردة حتما . ترى ، هل غاب عن سارتر ذلك ؟ كلا ... لكنه مع ذلك يصر على أن ستالين قد سلب من المشروع الثوري الكبير

---

١٦ ــ رغم ان دويتشر حاول الاساءة لستالين في كتابه (ستالين) الا ان الكتاب جاء تأكيدا لصواب مواقف ستالين آنذاك . لقد ازال كتاب دويتشر كل تساؤل حول مواقف ستالين . انظر : دويتشر، اسحق: ستالين ، دار الطليعة.

عنصره الانساني . ان هذا الفهم الليبرالي للحرية ، والذي يجعلها بؤرة للمحافظة والسقوط الاخلاقي ، فهم ملتبس : فهو اذ يدعو لعالم الحرية ، حتى وان كانت حرية فردية ، فانه يرفض اتباع الطريق الوحيد المؤدي اليه . وهنا يكمن السقوط الاخلاقي الناجم عن عدم الانتقال من عالم القناعات الى عالم التغيير الفعلي ، ومن ثم ، السقوط في دائرة المحافظة والايجابية .

ولقد كان سارتر يدرك هذا التناقض والحبوط ، حيث حاول التخلص منهما باختيار مواقف هي اقرب الى المواقف المسرحية منها الى السياسية ! فنحن نراه يقيم المحاكم الغيابية لقادة الامبريالية الامريكية كما انه يساهم في انتفاضة اليسار الفرنسي عام ١٩٦٨ ، ويتحالف مع مجموعات ثورية صغيرة ، ويدافع عنها في الصحف ، لكن ذلك كله لا يحل ازمته . انه لا زال قلقا ، متذبذبا . فهذه النشاطات يغلب عليها الطابع الفوضوي لدرجة ان الترابط الداخلي بين موقفه الليبرالي التأملي ، وبين اساليبه الفوضوية ، يظهر بوضوح مشيرا الى الحدود التي يتحكم ضمنها التكوين الايديولوجي للبرجوازية الصغيرة في منظريها . فنحن لم نعرف عن سارتر انه فوضوي ، بل عرفناه ليبراليا يتبنى موقف النقد للاوضاع القائمة . لكننا فجأة نجده ينتقل الى اختيار طريق جديد : مع الانتفاضة (العفوية) الثورية لطلبة فرنسا في عام ١٩٦٨ . لم تكن الانتفاضة مبرمجة بل كان الطابع العفوي يغلب عليها . والعفوية هنا تعني الفوضوية : رفض السلطة، الاستعاضة عنها بمجالس عمالية ذاتية ، رفض اي نوع من الحكومة بصفتها اداة قمع . ولئن كان سارتر نفسه لم يختر الفوضوية الا انه انجز اليها عمليا بحكم تكوينه . ان رفض القيود ، وهي في السياسة تعني التنظيم الحزبي (الدائم) والمنهج العلمي النظري ، هما السمتان البارزتان للفوضوية ، وهما ايضا السمتان البارزتان للوجودية ! ثمة اساس مشترك بين جميع التيارات البورجوازية

الصغيرة لا يمكنها التخلي عنه ، وهذا الاساس هو (الوسطية) :
سارتر يرفض القمع السلطوي الراسمالي والقمع السلطوي (الاشتراكي) ، والفوضوية المعاصرة كذلك ترفض القمعين المذكورين . وهذا الرفض يعبر عن خوف البورجوازية الصغيرة من فقدان امتيازاتها المعنوية والسياسية ، ففي عالم العفوية ، فقدان التنظيم والمنهج والدولة الاشتراكية الخ ... ، يتاح لها البقاء متميزة ثقافيا وسياسيا ، بينما الشغيلة عموما تعاني من تخلف سياسي وثقافي . اما عالم الالتزام ، وجود التنظيم الحزبي الدائم ، وقيام الدولة بدورها ، واتباع منهج واضح فانه يكسر طوق الاحتكار الثقافي والسياسي من قبل البورجوازية الصغيرة ويساهم في اعادة تكوين طلائع الشغيلة ثقافيا وسياسيا، فتتحرر بذلك من هيمنة الارستقراطية الثقافية للبورجوازية الصغيرة . هذا بالنسبة لبعض المثقفين ، اما بالنسبة للبورجوازية الصغيرة ؛ كطبقة ، فان وسطيتها ناجمة عن رغبتها في القفز الى السلطة وانتزاع امتيازاتها من البورجوازية ثم منع الشغيلة من مقاسمتها السلطة . ان النضال يتوقف بالنسبة لها عندما تصل الى السلطة، عند ذاك تعلن نفسها قوة وسطية ، فلا هي مع الراسمالية ولا هي مع الشغيلة ، رغم انها تجد نفسها عمليا وفي النهاية في صف البورجوازية ، فتبدأ في التفسخ ، كطبقة ، وتأخذ فئاتها في اختيار احد المعسكرين المتناحرين ؛ كلما اشتد النضال وانفجرت سرطاناتها الكامنة .

رابعا : «الأناوحدية» تقود الى اللا ادرية : ان اقتصار علاقتنا الابستمولوجية «المعرفية» على اكتشاف عالم الذات وافكاره وقيمه ، وليس على العلاقة بين الذات والعالم ، يحصر النضال الانساني في حيز لا ادري واضح . فممارسة تداعي الافكار والاكتشافات والملاحظات بمعزل عن العالم الواقعي والممارسة النضالية المستمرة ، المنظمة لا يؤدي الا الى تناسل ذاتي للافكار، يحكم على نضالنا المعرفي بالضمور والمرض ، ما دام العالم

والتعامل معه مصدرا ومحرضا لمعارفنا ونشاطاتنا .

ان الانسان الواقعي ليس معطى أوليا لا يمكن فهمه بصورة مطلقة . انه يفهم ولا يفهم في نفس الوقت ، يفهم يوميا عبر تغيره واكتشاف علاقاته ومناخ حياته ، ولا يفهم نتيجة الطابع اللانهائي للكون ، وبالتالي، نخضع نحن للتغيير الدائم بقدر ما نغير ونكتشف العالم . فمعرفة الانسان وتحديده (مرة واحدة) غير ممكنة ، بل نحن نعرف انفسنا (الان) ، معرفة نسبية ، مرحلية ، تغتني كلما قطعنا اشواطا متقدمة في نضالنا الانساني والكوني . وهذا الاغتناء هو الوجه الآخر للعملة ، فالمعرفة (الآنية) للانسان تحكمها مقاييس (مطلقة) ، هي خلاصة تجاربنا وتجريداتنا السابقة ، اضافة للمقاييس الآنية المتغيرة ، النسبية .

اما اذا نظرنا الى الانسان ككائن (غامض) او (غريب) لا يفهم، او ان فهمه مرهون بوصف وتحليل عالمه الذاتي المجرد ، والوصف والتحليل عمليتان مستمرتان ما دام الانسان حيا ، فان معرفة سلوك الانسان ومحركاته غير ممكنة عمليا . هنا يظهر الجذر (اللا ادري) الاصيل للفلسفة الوجودية ، ويصبح اساس الحبوط والعبث السياسيين .

اذن : ما هي النتائج العملية في السياسة لهذه التحليلات النظرية ؟

أ ـ **رفض فكرة التنظيم الحزبي** ، الذي هو (قيد) على المبادرة الانسانية ، وانتهاج سياسات نضالية عفوية ، ارتجالية، حتى وان انبثقت عن تنظيم فهو تنظيم (جبهوي) عارض وليس تنظيم حزبي مستقر .

ب ـ **رفض المنهجية العلمية المستقرة** ؛ التي تحدد وسائل الباحث وترسم له الطرق فتسد امامه الطرق المتقاطعة والوسائل المتناقضة العديدة التي لا يمكن لمنهج (عمل) واحد ان يطرقها او يستوعبها . وهذا يعني انتقائية منهجية ـ لكن الانتقائية هي بالضبط منهج بكل ما في هذه الكلمة من معنى ، لكنها منهج

الطبقات والمراحل الوسطية والانتقالية . والانتقائيــة وان كانت فاعلة وتقدمية في مراحل محددة ، الا انها ، على الصعيـــــد التاريخي الشامل ، معيقة للتقدم ، نظرا لان قاعها ميتافيزي ؛ ذاتـــي .

جـ ـ النظر للقضايا الجوهرية وتقييمها ، لا من خلال العلاقات القانونية التي تحكمها ، بل من خلال الانطباعات الحسية الفردية. فإدانة الراسمالية لا تنبع من تحليلات عميقةلبنية النظاموقوانينه، بل من ملاحظة الاضرار والقيود التي تنجم عن فاعلية هذه القوانين الداخلية ، دون اقرار وجود هذه القوانين كقوانين حتمية . اي ان الرفض الوجودي ؛ والبورجوازي الصغير عموما ؛ رفـــــض اخلاقي يستند على تحليل معطيات (مباشرة) من قبل ذات مفكرة، بطريقة تجريبية . وهذه الذات لا تخضع لقوانين ثابتة ، بل تقرر الاشياء على ضوء حالات التوتر والانفراج التي تعانيها . فيتحول الموقف ازاء النظام الاجتماعي من موقف تحليلي موضوعي خاضع لحقائق مستقلة عنا متفاعلة معنا ، الى موقف فينومينولوجـــي وصفي ذاتي ، خاضع لتغير أمزجتنا وعناصر تكويننا الشخصي . اي ان المشكلة لم تعد الموقف من النظام ذاته ، بل الموقف من بعض تجلياته الظاهرية وما تتركه من آثار ذاتية علينا .

د ـ النظر الى الانسان كمخلوق غامض ، كمعطـــى اولي :
ان الجذر اللا ادري للفلسفة الوجودية، والذي هو اساس الحبوط والعبث السياسيين ، يتجلى في النظر للانسان كمخلوق غامض. فالانسان الغامض الذي لا يفهم ، او يصعب فهمه هو المسؤول الاول عن البؤس والشقاء ، وليس علاقات الانتاج السائـــدة والوضع التاريخي ! ان هذا التفسير **الفيزيولوجي «لقد كـــــان دائما في حرب وسيظل كذلك الى الابد ـ بوفوار ـ»** المجــــرد للانسان ينفي سوسيولوجية (اجتماعية) المشكلة، وبالتالي ، يجعل قضية تحرير الانسان مستحيلة ، وفي افضل الحالات ، وهـــي حالات نادرة ، قضية فردية وتمردية . والتمرد لا يحل المشكلة

ابدا بل ينقلها الى مستوى آخر ، ما دام مصدر المشكلة قائما . وهكذا يلوح الوجودي عقليا ارثوذوكسيا ، بمفهوم (العقل) السابق لهيجل اي التأييد والمحافظة والايجابية .

اذن : النتائج السياسية المذكورة ، والتي نلاحظها في الممارسة السارترية ، او يمكن الوصول اليها بمتابعة المنطق الداخلي للوجودية لا تجعل امامنا سوى امكانية تبني حكم واحد : الوجودية فلسفة رجعية ، تخدم الامبريالية العالمية ، التي يهمها جدا الابقاء على الاوضاع كما هي ، او تقديم حلول سطحية لا تمس الاساس البنيوي للراسمالية العالمية ، هذا على الصعيد التاريخي الطويل المدى ، اما على الصعيد المرحلي ، التكتيكي ، فان بعض تياراتها يمكن ان تساهم في النشاطات السياسية المعادية لبعض التبديات (السياسية) للنظام الرأسمالي العالمي .

(آب ١٩٧١)

نشر في مجلة (المثقف العربي)، العدد الخامس ، كانون الثاني ١٩٧٢

الفهرست

هذا الكتاب

هل تتدرج البرجوازية الصغيرة العربية تحت ظل التصنيفات الكلاسيكية التي اتضحت من كتابات ماركس ولينين وغيرهما من منظري الماركسية في الغرب ؟ وهـــل تقــوم بنفس الدور السياسي الذي قامت به كطبقة هناك ؟ وهل يتفق منظورهـا مـــع منظـور البرجوازية الصغيرة في بلدان الغرب في منتصف القرن الماضي ومطلع هذا القرن ؟.

ام ان اختلاف ظروف الزمـــان والمكان والاوضاع الاقتصادية والسياسية في البلدان العربية وبلدان العـــالم الثالث تفرض تغيراً نوعيـــاً في الفكر والدور السياسي الذي تلعبه هذه الطبقة ؟

هذا ما يحاول هذا الكتاب ان يتطرق الى ناحية من نواحيه فيطـــرح ويناقش « بعض القضـــايا الايديولوجية للبرجوازية الصغيرة ».

الثمن : ٤٥٠ ق. ل.

دار الطليعة للطباعة والنشر
بيروت